الدغل

رواية

الكاتب/ يوسف حسين

الدرغل

يوسف حسين

رقم الإيداع: 2018/26824
الرقم الدولي: 978-977-835-090-6

الناشر - دار زحمة كتاب 15 ش السباق - مول المريلاند - مصر الجديدة

تلفون: 0120500596

Email : za7ma-kotob@hotmail.com

تحت رعاية إدارة المحيط الأدبي

مقدمة

مغيبٌ أنا في حضوري وغيابي، لستُ أدري ما بالي؟، ولا كيف وصل بي الحال لذاكَ الظلام الدامس، طريقي أمامي كالضباب لا يُرى فيه راءٍ، أسير فيه بلا أدنى دليل لا مرشد يوجهني لأوله ولا بصير يدعوني لآخره وكأنني في حرب مدبرة لضلالي أدعوها للسلم بينما تأبى إلا أن تُراق دمائي، لا أعلم حتّاما سأسير بعد؟، كل ما أدركه أنني وحيدٌ كيتيم وُلد في أرض قفر، عارية من كل شيء إلا من الآثام، تخلو من كل شيء حتى من الأشخاص، لم أعد أدري إن كانتْ روحي لا تزال بجسدي أم أنها هي الأخرى انسلّت هاربة منه ككل شيء من حولي ككل شخص يعرفني، أحيانًا أتفحص قلبي، ثم أتحسس نبضي لكن بلا أدنى حس، لستُ أسمع دقاته، ولا أشعر بارتعاده كالسابق، أراه فارقني منذ زمن، ربما أقنعوه بالفكاك مني مثلما أقنعوا الكثيرين، أحاول أن ألتمس رجفته إثر أي حادث كسابق عهده لكن بلا طائل، تُرى أين ذهب يا عقلي؟، أين ذهب وتركني وحدي أقاسي، أبحث عنه، أفتّش عنه في الأروقة هنا وهناك، أتساءل أذاكَ ظله؟، أأرى طيفه هناكَ بعيدًا حيث يخيّم الظلام بحُلكته ودمسته أم أنني واهم؟، أين رحل عن

ذاك الجسد الخاوي من كل شيء إلا من أنفاسه؟، أهناكَ من أواه؟، ومن غيري سيأوي ذاك البائس؟، من سوايَ سيبكي معه أرق الليالي؟، من عدايَ سيحتكم إليه ممن يؤذيه ويستظل تحت جناحيه؟، آراهم هدروا بكَ يا فؤادي مثلما هدروا بي، أرى جثتكَ تنتشلها الصقور من بقعة دماء تحيطكَ، وتتقاسمها الغربان بعد أن مزقكَ أحدهم بسكينه الحاد وتركك تعاني وحدة جديدة وموت بطيء، أنتَ والدماء فقط رفيقان، تتسللان على الأسفلت فيتلذذ بكما المارة يشاهدونكما وكأنهم في عرس سعيدين بما يرونه بينما تسقي أنتَ بإراقتكَ أراضيهم الجرداء.

كان يدعى "طارق"، يقطن بإحدى قرى الريف المصري وتحديدًا قرية "الحمادية" التي نشأ وترعرع فيها، ورث عن أبيه مهنة الكهرباء، وعلى الرغم من أنه لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره إلّا إن عقله بلغ أربعينًا، بدا وسيمًا للغاية رغم طوله المتوسِّط، ذو شعر أسود وبشرة بيضاء بحمرة خجل العذراء وصوت مميز ذي نوع غريب، يحمل نبرات عديدة تُمكِّنه من تقمُّص عدّة شخصيات نسائية، لم يكن حلمُه بسيطًا بل كان صعبًا ومستحيلًا، وهو أن يطير بجناحين كالطّائر أو المروحية.

كان يملك الكثير والكثير من الأصدقاء ولكلٍ منهم مكانته الخاصة في قلبه، فهو لم يعرف الكراهية قط، ولا يكِنُّ حقدًا بداخله لأحد، حتى الضغينة لا تعرف طريقًا لقلبه، عمل بكدٍ حتى استأجر دُكانًا صغيرًا لكي يبتاع فيه مستلزمات الكهرباء والأفراح، وأعانه على ذلك صديق مُقرَّب له يكبره فقط بأربعة أعوام، ثم مرّت الأيام والليالي بعد ذلك وهو على حاله، ما من جديد يطرأ.

ظلَّ يستعمل صوته في المزاح مع أصحابه وأصدقائهم حتى عام إحدى عشر وألفين من الميلاد، وتحديدًا وقت اندلاع "ثورة يناير"، تلك التي غيَّرت نظام الدولة المصرية وطباع ذويها، وكأنها أتت رُخصة لكل من لديه ذرة شر كان قد ادخرها داخله ليُخرجها هذا العام، حيث نبتت وربت وترعرعت وخرجت معلنة عن سوأتها وسوء نفس صاحبها الذي ربَّاها داخله منذ ولادتها إلى لحظة خروجها للحياة.

فقد نشبت معركة حامية بين عائلة "طارق" التي تحمل نفس اسم القرية "الحمادية" وإحدى العائلات الأُخرى التي تقيم في البلدة ذاتها، وليس بالأمر الغريب أن يكون نتاج تلك المعركة قتيلًا؛ حيث راح ضحيتها رجل في منتصف عقده الثالث معروف

بحسن الخلق والاستقامة، خرج من المسجد بعد أداء صلاة الظهر لتقابله رصاصة غدر دون رحمة من مطلقيها استكانت داخل صدره؛ فأودت بحياته في الحال، تغيَّر عقبها لون السماء فلُوِّنت بالشرر وصرخت صرخة رعد صناعي نتاج رصاصات غطَّت عنان السماء انطلقت من فوهة أسلحة ذوي القتيل.

لذا خيّم الحزن والهلع على جميع أهالي القرية والقرى المجاورة، وأصبحت الشوارع والأزقة خالية من الناس إلَّا من أصحاب الدم الذين يتجولون في الطرقات بحثًا عمَّن يُخمد نيرانهم الموقدة داخلهم من قتلة فقيدهم، فقد أغلقت المحلات، وتوقفت المخابز عن العمل، ثم هُجرت المدارس،المدارس، أمّا الشرطة فلا أثر لها بعد هزيمتها أمام الشّعب، وأصبح حالها كحال أهل القرية التي كانت تبطش بها حكومة البلاد قبل اندلاع الثورة، ثم غدا كلاهما خائفًا، أضحَوا يحتجزون أنفسهم داخل خنادق وغيابات مجهولة، إن طرق أحدهم الباب بقدمه وهو يتجول دون وعي منه، قفز قلبه من صدره خوفًا وهلعًا.

ظلّت القرية أيامًا ولياليَ خالية من الناس والأطفال حتى المواشي التي كانت تمتلئ بها شأنها شأن كل قرى الرّيف اختفت بدوْرها

تمامًا، والمساجد لم يعلُ صوت مآذنها حتى تمكَّن بعض كبار القرية من إجراء عدّة محادثات مع كلتا الطائفتين للتوصّل لحل يرضي الطائفة المهدور دمها.

وبعد مفاوضات دامت يومين أُخمدت نيران المعركة واختفى صوت الرعد وبدأ الناس يخرجون للشوارع، لكنهم خرجوا مرتابين غير مدركين لسبب الهدوء المفاجئ.

_" أترى ستهبُّ بعده ريح عاصفة، فلا تُبقي أخضرًا ولا يابسًا إلَّا واقتلعته من جذوره؟، أم ربّما قد يتوصّلوا معًا لدفع دية لذوي القتيل الذي قُتل عن غير عمد؟!!!".. كانت هذه أسئلة الناس التي دارت في خلَدهم ولفظتها ألسنتهم ونطقت بها أعينهم..

وكان من أوائل الذين خرجوا يمارسون عملهم هو "طارق" الذي ذهب إلى منزل أحد أقرباء القتيل ليصلح له ما أفسدته النيران في بيته من كهرباء فعندما اندلعت الطلقات أصابت بعض أسلاك الكهرباء وحطمت أشياءً كثيرة في عدة منازل، تعجّب الناس من فعله وهم يعلمون أنه من شيعة القاتل لا سيما عندما دخل أحد بيوت أهل المقتول!، لكنه لم يبالِ لما كانوا يردّدونه، ولم ينتبه

أن عدم اكتراثه لقولهم قد يُعرّض حياته للخطر، حيث باشر عمله، وتحدث إلى صاحب البيت قائلًا والحزن يغفو على وجهه:

- والله إني لحزين لما حدث وأتمنَّى لو أن أقتل الفاعل ألف مرة، فالقرية تبكي وتنام قبل أن تنام طيورها، وهذا ليس حالها الذي اعتدنا عليه منذ ولادتنا..

احتفظ الرجل بالصمت لوهلة متأملًا ملامح الفتى بينما تابع هو بنفس النبرة الحزينة:

- لو أن لديَّ أملًا ولو ضئيلًا أنهم سيقبلونني بديلًا عن القاتل، لقدّمت روحي فداءً لأرواح ربما تُفارق الحياة رغمًا عنها دون ذنب اقترفته.

لم يعقّب الرجل على حديثه بل ظلَّ يستمع إليه في صمت، وبينما كان يتابع، سمع صوتًا خشنًا أتى من بعيد ليصيح به متهكّمًا:

-ما الذي أتى بك إلى هنا؟، هيّا اخرج، وإلَّا قتلتك!

كان الصوت لشابٍ في الثلاثينيات من عمره متعصّبًا، بينه وبين القتيل وكذلك صاحب الدار صلة نسب، ليتلقّى "طارق" كلماته

بذهول ممزوج بالصدمة، فذلك الثلاثيني من أصحابه القدامى، وكان دائمًا ما يتردد على دكّانه مساء كل يومٍ، ليقضي معه بضع ساعاتٍ، يتناولان المزاح فيما بينهما، يرافقهما صديقُ عمرِ الأول، لذا تعجب بشدّة لحديثه، وما كان منه إلّا أن أخفض رأسه خجلًا، وخرج من المنزل دون أن يأخذ ثمن عرقه الذي سال منه أثناء تصليح الأعطال.

خرج من مكانه والناس ترمقه بنظرات غريبة وكأنه ارتكب جريمة كبرى في حق نفسه، ظل يتجول في الشوارع رافعًا بصره إلى السماء باحثًا عن طائره المفضل الذي كلما رآه شعر بالسعادة، فعندما كان يحلق بجناحيه كان يضرب به مثالًا للحرية التي فقدها الكثيرون بين جدران منازل وأبواب زنازين وقيود الحياة.

أخذته قدماه إلى تلك البقعة المقرّبة إلى قلبه التي تبعد عن القرية بميلين أو أكثر قليلًا، تلك البقعة الخضراء التي تحفّها المياه من كل جهة إلا التي يدخل منها، لم تكن تطمئن نفسه إلا حين يأتي مفضّله محلقاً فوق رأسه، وذلك عندما يتسلق شجرة التوت المستقرَّة في منتصف البقعة؛ ليتأمل السماء وزائريها الذين يتمتعون بالحرية الكاملة، ويغيب عن واقعه المؤلم ليُحلِّق

بخياله مع طائره ذاك، حيث يتسابقان معًا، فتارة يسبقه الطائر وأخرى يكن هو الفائز، هو لا يحلّق بجسده، بل بعقله الذي يستطيع الإنسان بهِ غزو العالم بأكمله، دون أن تمنعه حدود وضعها السفهاء ليفصلوا العالم عن بعضه؛ فتلك الحدود قد وُضعت لمن يسيرون على الأقدام فقط، أما من يحلّقون في السماء فلا حدود لهم.

كان ذاكَ تفكيره وهو جالس فوق شجرة التوت يتأمل الطيور التي لها لغة مثلما للبشر، لكن لا أحد يفهمها إلا من حلق بعقله معها، فهذا طائر اليمام يقول لصاحبته سنتزوج عمَّا قريب، ونبني عشنا على تلك الشجرة، فوق الغصن الذي يجلس عليه ذلك الإنسان تحديدًا، فالبشر لا يجلسون إلّا في أماكن آمنة، خالية من الحشرات التي تفتك بصغارنا وهم في قوقعتهم!

دار هذا المشهد في مخيلته وهو ينظر لزوج اليمام، ليضحك بصوت عالٍ وكأنه حقًا يسمعهما ليهتف بنفس الصوت قائلًا وهو يراقب بعينيه مداعبة الطائر لرفيقته في الفضاء:

- أيها الأبله، لو كان الإنسان يختار الأماكن الأكثر أمانًا، لما اخترت أنا وتمنيت أن أكون مكانك الآن!

بعد وهلة ذرفت عيناه دمعة يتيمة عندما رأى الشمس شارفت على المغيب، وحدّثها بصوت عالٍ وهو ينظر إليها:

- لماذا أراكِ اليوم غاضبة وحزينة؟ هل قُتل ابن لكِ غدرًا!

وبينما هو يتأمل حاله هكذا إذا بسؤال أحدهم من الخلف:

"ماذا تفعل عندك يا فتى؟"

سؤال جاءه بنبرة غاضبة من غريبٍ لا يعرفه، لذا أخفض بصره أرضًا باحثًا عن صاحب الصوت، فوقعت عيناه على فوهة مسدس موجهًا نحوه، ثم تابع الهبوط ببصره طول ذراع ليرى حامله، فرأى جسدًا ضخمًا كأجساد الفيلة، عيناه حادتان كعيني صقر لحظة ترقبه لفريسته، ووجهه عابس للغاية، ظل يحدّقه بنظرات التعجب حتى صاح به هذا الضخم مرة أخرى، ولكن تلك المرة كانت نبرة صوته تحمل التهديد، فإن لم يترك مكانه ويهبط أرضًا ليمتثل أمامه، سيكون من نصيبه ما في جعبة مسدسه من طلقات نارية!، صمت الفتى قليلًا ثم تخلى عن مقعده وبدأ بالهبوط من فوق الشجرة مفكرًا في حال والديه إن أصابه مكروه ما..

هبط أرضًا ثم وقف أمام الرجل ورمقه بنظرات مستعطفة بينما سأله الرجل بجحود:

- ابن من أنت؟

فأجابه دون النظر إليه، فما كان جزاؤه إلَّا صفعة قوية، تلقّاها على وجهه من كف ذاك الضخم، مصحوبة ببعض الألفاظ النابية التي رماه بها، لينهي كل هذا بتحذير ووعيد:

- إن رأيتك مرة أخرى هنا، سأقتلك!!

لم يبدِ أي رد فعل سوى أنه أخفض رأسه، وسار بخطوات بطيئة نحو الطريق، متلمسًا بيده موضع اللطمة، مفكرًا في حال والده وبني عمومته إن قص عليهم ما فعله الرجل معه، فهو لا يهاب الموت مثلما يهاب الفتنة، لأنه يعلم جيدًا أنها أشد من القتل، وما حدث لقريته الصغيرة لم يكن إلا بسببها، فقبل سنوات قليلة كانت بلدته جميلة راقية يُضرب بها المثل في كل شيء، أهلها أهل كرم وأخلاق ونساؤها نساء عفة وشرف وأمانة، أما أطفالها فقد ولدوا رجال حتى عام الثورة، لا يعرف إن كانت ثورة تغيير أم نكسة ووباء أصابا بلدته، ظل يفكر بذهول فيما حدث، ويُحدِّث

نفسه وهو يسير بخطواته نحو القرية التي خلت من البهجة، وانطفأ بريقها، وخيَّم عليها الحزن..

وعندما أصبح على مشارفها، نظر بعينين دامعتين نحو اليسار حيث مسجدٍ لم تغلق أبوابه منذ نشأته إلَّا في تلك الأيام العصيبة، بكى بشدة ثم تحرّك نحوه، وجلس عند بابه، وهو ينظر إلى السماء التي غابت شمسها، ولم تظهر نجومها حتى الآن، جلس وطالت جلسته حتى لمح خيال رجل يقترب منه، فكَّر للحظة أن يظل جالسًا لحين ابتعاد الرجل عنه، لكنه تذكر الموقف الذي حدث منذ قليل، مما جعله ينهض عن جلسته ويتجه بخطواته نحو البلدة، ليس خوفًا منه ولا على نفسه، ولكن خوفًا على والده الذي وضع فيه كل آماله وطموحاته فعلى الرغم من أنه ليس الابن الوحيد، إلَّا أنه الأكبر والأقرب لقلب أبيه، تذكّر حينها ملامحه، وبعض تجاعيد وجهه التي ظهرت مؤخرًا، ليتسمّر مكانه فجأة، ثم يثبَّت بصره أسفل قدميه، متأملًا تلك الملامح جيدًا التي خرجت من ذاكرته، لترسم بنفسها لوحة جميلة جذابة لرجل مسن تجاوز الخمسين، ذو شعر أبيض كثيف وعينان كاد سوادهما أن يختفي، وأنف قد انكمشت أرنبته بفعل

السنين، وبرغم كل هذا، لا يزال يحمل ابتسامة طفل صغير، تنير وجهه المجعد.

وقف محدّقًا بغرابة شديدة، متجاهلًا ظهوره أسفل قدميه في هذه اللحظة، فربما لأنه يحتاجه، أو ربما لأن الأب يشعر بما يشعر به الابن وقت ضيقه وإن كان بعيدًا عنه، فقد خيِّل له أن الصورة تتحدث، لينصت لكلماتها، وهو يراقب بخياله تحرُّك شفاه والده، الذي همس بصوت لا يسمعه إلا هو:

- من المحتمل ألّا تصل لوجهتك اليوم، في هذا الليل البهيم، وتتحسر لأن الوقت فات، والزمن قفز من كُم قميصك، ولا شيء مما رسمته سابقاً قد خرج من إطار اللوحة وطار!

كان هذا حديث والده الذي قاله له منذ زمن بعيد، لكنه تذكره الآن، وكأن صورته هي من كانت تتحدث، ليرد عليها بصوته المختنق:

- لكنني آمل خيرًا في هذا الطريق الطويل، أقول:

_"لعل فرصة مناسبة تدهسني، أو مفاجأة ضخمة تهوي على رأسي من فوق ناطحة سحاب، أو ربما في الرمق الأخير سأشعر

بالسعادة، وستتغير قناعتي عن الحياة والموت والحب، وسيُشيّع السواد حزينًا إلى مثواه الأخير!"

قال كلماته تلك وصمت حتى تلاشى صداها، ثم واصل المشي منهمكًا في تقليب الأفكار برأسه حتى قال لنفسه:

- حاول أن تميط لا مبالاة الآخرين بك من الطريق، وأن تدوس كل وجهة نظر لا تروقك، أن تترك الحجارة وأغصان الأشجار كي تعيق حركة السير، وتوقف السيارات الكثيرة، تلك التي تتوقع أن تصدمك إحداها في أغلب الأحيان، لتتمكن أشلاؤك أخيرًا من التلاحم مع الأرضية الصلبة، تتوقع أنك لن تنطق أبدًا، وتستمر في الثرثرة بشكل صامت، وفي الغليان الداخلي والصراعات التي تنشب في أعماقك المتعبة، وهذا كله لا يغير من واقع، أنك لن تصل للحقيقة ما حييت، ولن تفهم لمَ يخيم الملل على حياتك منذ وعيت، وبدأت تتحسس العالم الخارجي، وتقضم أصابعك وأصابع الآخرين ندمًا على أشياء ارتكبتها بمحض إرادتك، وأشياء أخرى التصقت بك، ورثتها عن أجدادك جيلًا بعد جيل..

حدّث نفسه بهذه الكلمات، وهو يواصل المشي، حتى تعرقلت قدماه بإحدى الحجارة الموضوعة في منتصف الطريق، فأخفض

بصره ليرمق الحجر، ثم انحنى وقام بالتقاطه، ليضعه على جانب الطريق، كي لا يؤذي أحدًا آخر غيره، لقد نسى تمامًا ما حدثته به نفسه منذ قليل، وفعل ما أملتهُ عليه أخلاقه وفطرته، لكنه قبل أن يستقيم بقامته، مرت رصاصة غاشمة فوق رأسه، وبدأت أصوات النيران تعلن عن نفسها، وكأنها بركان قد انفجر!

فرفع قامته ونظر إلى السماء، وجدها مالت إلى الحمرة، واختفى سوادها من شدة الطلقات التي خرجت من فوهة بنادق أصحابها، ظل واقفًا مكانه يتجول ببصره في السماء، حتى لمح طائره المفضل (الدّرغل)، ذلك القمريُّ جميلُ المنظر، ذو الصوت الموسيقي العذب، والجسد الرّشيق، يملك ألوانًا مبهجةً في أجزائه العليا، حيث لونها الأسود ممزوج بالبنيِّ والجَوْزي، وقد يصل طوله إلى ثلاثين من السنتيمترات، بينما أجزاؤه السفلى، فذات لون قرنفلي تصاحبه بقعة مميزة على العنق، بيضاء منقوشة بالسواد.

ارتجف بشدة وهو يراقب درغله، بينما الطلقات النارية أحاطته من كل جانب، وهو هائم، سارح مع طائره، قلقٌ عليه، مفتون به، لا يبالي بشيء مما يحدث حوله، إلى أن تعالى رنين هاتفه،

فأخرجه من جيبه ليرى المتصل فوجده أباه، وهُنا أفاق لما يحدث من حوله، ووضع يده فوق قلبه ليهدئ من نبضاته المتضاربة، ثم ضغط على زر الاستقبال باليد الأخرى ليستمع لحديثه عبر الهاتف حيث سأله بقلق بالغ:

- أين أنت؟

أجابه بنبرة الواثق من تعاسته:

- لا تقلق عليَّ أنا بخير.

صاح به غاضبًا:

- ادخل المتجر أو المخزن، ولا تخرج أبدًا، حتى تهدأ الأمور.

أنهى معه المكالمة ثم رفع بصره للسماء كي يبحث عن طائره.. فلم يجده، لذا أخفض بصره وتحرك بخطوات ثابتة في طريقه وقبل أن تسوقه قدماه إلى منزل صديقه "رفعت"، توقف عن السير وبدأ يجول ببصره في الشوارع والطرقات وصوت النيران قد انطلق مرة أخرى يُهدّد استقرار الأوضاع، وبعد أن هدأ قليلًا فكر في إكمال طريقه إلى متجره، وأن يمكث داخله لبعده عن منزل أبيه، ثم تذكر أنه لم يرَ صديقه المقرّب منذ وقوع تلك الحادثة

وانه من الجيد أن يمكث في منزله حتى حلول الصباح، فعدل عن ذهابه إلى المتجر وتقدم خطوتين حتى أصبح أمام باب صاحبه، طرقه بيده طرقة خفيفة فسمع صوتًا مرتجفًا يقول بقلق بيِّن:

- من؟

أجابه بثقة:

- طارق..

فتح له صديقه وقد تغيرت ملامحه عندما رآه وتصبب عرقًا وأردف بذهول تبعه خوف:

- ما الذي أتى بك إلى هنا في هذه الساعة؟، أنت تعلم أنني لا علاقة لي بما يحدث!

ابتسم ابتسامة خفيفة وهو يربت على كتفه كي يطمئنه، ثم تقدم بخطواته داخل المنزل، مما جعل الآخر يتنحى جانبًا وهو يمرر يده فوق وجهه، كي يكبت القشعريرة التي أصابته عند رؤيته، ثم تقدم خطوتين سبقه بهما في حين تمهل هو في خطواته احترامًا لحرمة البيت، حتى أصبح بمحاذاته يسير معه جنبًا إلى جنب نحو الردهة، وعندما تجاوزا مدخل المنزل وأصبحا في الردهة،

فوجئ أن جميع أهل البيت يقفون صفًا واحدًا، مثبِّتين أعينهم عليه، وكأنهم جنود حرب وقفوا مطأطئين رؤوسهم، أمام قائدهم المتسلط.

أصابه الذهول عندما رآهم بهذه الحالة، فهذه هي المرة الأولى التي لا يجد فيها منهم ترحيبًا ولا استقبالًا كان قد عهده منهم منذ أن صادق ابنهم، مما جعل الصمت يستكين على شفتيه هو الآخر ليمنع السلام أن يخرج من فمه، وظل هكذا حتى استطاع والد الشاب أن يتخلى عن صمته ويقول بارتباك:

- تفضل بني..

وجّه بصره نحوه فاستشف من ملامحه أن الجملة خرجت من بين شفتيه رغمًا عنه، لذا تراجع بخطواته إلى الخلف وهو يقول معتذرًا:

- آسف، سأذهب.

تحرك نحو الباب فحال صديقه بينه وبين الخروج وأردف بإيضاح:

- لقد أصبح الوضع حرجًا للغاية، عليك أن تفهم ذلك، لقد قُتل منكم رجلٌ، وأنا وأنت في نظر الناس أعداء.

فسيطر الذهول عليه وهتف متسائلًا:

- رجل، منا نحن؟ كيف وقد كان منكم من قبل!

- اليوم قد سقط رجلٌ منكم، وأصبحت الرؤوس متساوية، فلا حق لنا عندكم، ولا أنتم أيضًا!

كانت هذه إجابة صديقه الصادمة، التي جعلته يسند رأسه على الجدار، وهو يخبط ظهره به ويقول في نفسه:

- في خضم هذه الحرب الباردة، والغمامات التي تسقط صريعة من السماء، سأمضي قدمًا نحو مصير مجهول، موسومٌ بالحظ العاثر والقلق الوجودي الذي لن يفارقني أبدًا، أتمنى لو أن شريط حياتي يعود بالعرض السريع للوراء، فأصغُر شيئًا فشيئًا، وتسقط شهاداتي المعلقة على الجدار تباعًا، ويختفي شعر لحيتي وعانتي وإبطيّ، وتختفي أيضاً عضلاتي البارزة، وينقص طولي وأفقد بعض أضراسي ثم أرى نفسي أتشبث بالأشياء، بالحائط والخزانة

والثلاجة، أسقط فأرى أمي تحاول أن تساعدني على الوقوف، وأبي يضحك من بعيد، ويذهب للغرفة وهو يناديني قائلًا :

_"اتبعني أيها الطفل الجميل"

أما أنا، فأستغرق في الدهشة، تمر لحظات خاطفة، فأجد نفسي أحبو، ثم بالكاد يمكنني الجلوس، لم يبق الكثير بعد، وها أنا ملفوف بقماطة بيضاء، عاجزًا تمامًا عن الحركة، لا أفلح سوى بالبكاء والنظر لوجوه ضاحكة أمامي، سأحاول أن أسرع المشهد قليلًا، أعتصر ذاكرتي، أدعها تعود لنقطة البداية، أول حركة سخيفة في هذا الفيلم التراجيدي، ها أنا عائم في بطن أمي، أتقلص أكثر، عدت مضغة من جديد، لا، بل علقة، هكذا أنا نطفة تعود لوكرها!!..

كان هذا حديثه لنفسه، وقد اسودت الشاشة أمامه لأن شخصًا ما ضغط على زر الإيقاف فبكى! كان هذا الشخص صديقه المقرب، عندما أخبره أن من قُتل هو صفوان الربيعي أقرب الأقربين إليه، حينها توقف نبضه وشُلت حركته، تردد صداه طويلًا، وفجأة حلّ السكون موضع أنفاسه، تلك التي كتمها داخله من شدة الذهول، مما جعل صديقه يستند بظهره على

الباب وينظر إليه بتمعن، أما أفراد عائلته فلا يزالون واقفين مثبتين أعينهم عليه دون حديث.

أصبح المنزل شبيهًا بمقبرة فرعونية قديمة، تصطف فيها التماثيل فيه صفًا واحدًا دون حركة، موجهة أعينها في اتجاه واحد، أُصيبَ المكان بلعنة الركود، أما هو، فظل صامتًا لا يقوى على الخِطاب، بعد تلك العاصفةٍ الهائجة التي اجتاحت كل كيانه وأرْدَته رمادًا باردًا ملّ الاحتراق!، فكل صيفٍ يطفئه شتاءٌ! ولا شيء مخوّلٌ للبقاء، ومع فَناءِ الوهج الأخير، استدار، وأودع روحه في تابوتها العتيق، هذا الذي صنعه لها من صمته، وطمأنها بأن هناك ربٌ لن يضّل إليها الطريق! حتى وإن طمسه الصقيع أو تجاهله عابرُ سبيل أو صديق..

دخل في كهف سباتٍ لا يدري كم كان سيطول، لكنه لم يكن يعلم أن أرضية الكهف يرقد أسفلها بركان يستعد للظهور، فتح الباب ثم خرج، دون أن يلتفت لأحد منهم، وهم بدورهم تنفسوا الصعداء عند خروجه، وكأنه كان صخرة قادها مجهولون، ليضعوها فوق بئر عميقة جف ماؤها دون النظر إلى أعماقها؛ وكان هؤلاء داخلها تأويهم وتدفع عنهم شدة البرودة، فمنعت

تلك الصخرة تسلل الهواء إليهم، لذا كادت أرواحهم أن تختنق من وجوده، وعند خروجه تنفسوا بارتياحية شديدة، غير مبالين لما سيحدث له في تلك الساعة المتأخرة من الليل، وفي ظل هذه الظروف الراهنة..

أما هو فقد كتم دمعه أمامهم حتى لا يروا ضعفه، وعندما تجاوز سور منزلهم بكى بشدة، وهو يتذكر رفيقه الذي مات غدرًا منذ ساعات، تذكر آخر مرة قد رآه فيها، كانت قبل نكسة بلدتهم بيومين؛ حيث كان يمر بسيارته مسرعًا لكنه عندما لمحه من بعيد أوقف السيارة، ثم لوح له بيده مبتسمًا، تلك كانت عادته دائمًا، فقد كان من القلة الذين يبتسمون في كل الظروف، وتحت أي ضغط، حتى إن كان غاضبًا حانقًا أو حزينًا، كان بشوشًا يقابل الجميع، غرباء وأقرباء بوجه طليق، طيب الخلق كريمًا..

ركب معه السيارة وبعد أن صافحه انطلق بها، وبدأ بالحديث حيث أخبره حينها أنه لا ينوي السفر هذه السنة، فقد أكلت الغربة منه وشربت حتى أنه أصبح يشعر بالشيخوخة رغم صغر سنه، وأنه يود أن يقضي ما تبقى من عمره بين أهله وعشيرته،

إضافة إلى أنه منذ عشر سنوات لم يقضِ معهم رمضان وقد شق ذلك عليه.

لم يكن يعرف حينها أنه لن يشهد الشهر الكريم معهم أبدًا، وأنه لن يعود للدوار ولا للبيت، لن ينظر مجددًا من نافذة حافلة قديمة إلى الأشجار المستكينة على حافتي الطريق.

لقد اغتيل قبل أن يعود إلى منزله فهو منذ آخر لقاء لهما، وهو في القاهرة حتى أنه لم يشهد وقوع الحادثة الأولى، ظل ماكثًا هناكَ وعندما عزم على العودة إلى بلدته وشارف على دخولها قُتِل غدرًا!

بكى بشدة وهو يسير بخطواته المشلولة داخل القرية، رافعًا يده قُبالة وجهه، وهاتفه في بطن كفه، محدقًا في صورته التي التقطها له في آخر رحلة قاما بها معًا إلى الصحراء لاصطياد الغزلان، هناك تم تقسيم المهام بينهما فقام صفوان بإشعال النار وإعداد الجمر لشي اللحم وصنع الشاي، بينما شرع هو يصور كل شيء مشهدًا بمشهد، لا سيما ذاكَ المشهد الذي لفحت فيه النار إصبع صديقه على حين غفلة منه وهو يهم بتحريك الجمر بغصن شجرة يابس، حيث كان يرفع رأسه بين فينة وأخرى لينظر لآلة

التصوير، حينها امتصه بحرقة وهو ينظر له بابتسامة ممزوجة بألم، قد اجتاحت ملامحه.

ظلّ يحدق في الصورة، في حين كان بنو عائلته يتجولون في الشوارع، حاملين أسلحتهم، يشهرونها في وجه كل غريب عن عرقهم إذا لمحوه في طريقهم، لقد كان دائمًا غريبًا عنهم، فهم يحملون الأسلحة، وهو يحمل هاتفه، ويحدث نفسه برثاء، ناعيًا حاله وحال الجميع.

- لطالما وقفت مندهشًا أمام جبروت الموت، وكيفية نظرته إلينا بشفقة، بينما ننغمس في التخطيط لمستقبل مجهول، وننأى بأحلامنا بعيدًا عن كمائن الفشل ومصائد الذاكرة، وكدر العيش، والخوف مما يخبئه لنا القدر، أعلم أننا قطوف هذا الجندي من جنود الله، أعلم أننا سنابله التي هو حاصدها لا محالة، ثماره التي لا يهمه كثيرًا إن أينعت أو لا تزال نيئة، لكن موتك مُوجع يا رفيقي، اختفاؤك المفاجئ والأبدي قاتل، قاتلٌ كضربات سيوف حادة على جسد هزيل، لم يكن خبر رحيلك مؤلمًا فحسب، لقد استقر في قلبي كطلقة قناص حاقد، ويا لخبر الموت حينما ينهمر كالسيل في دواخلنا!.

كانت هذه آخر كلماته التي قالها قبل أن يصل إلى منزل رفيقه حيث وجد نفسه أمام منزله فجأة؛ عندما رأى الجمع الغفير من أهله يقفون في الشارع مطأطئي الرؤوس، أغلق هاتفه ثم وضعه في جيبه ووقف بجوارهم، دون أن يلفظ كلمة واحدة؛ حينها سمع من بجواره يحدّث آخرًا ويقول:

- تلقيت الخبر في الهاتف.

- ألو، سمعت؟

- لا، ما سمعت، خيرًا؟

- قالوا لي، أن صفوان قُتل.

انتظرت دقائق حتى أعيد ترتيب الجملة في دماغي، حسبتها دقائق في الوهلة الأولى، ثم امتدت لساعات، فأيام ولا أظن أن عمرًا آخر يكفيني لفهم ما قيل لي.

وقتها تحدث مع نفسه وكأنه يحدث شخصًا آخر:

- كيف نتغلب على الموت ونحن عاجزون حتى عن شده من تلابيبه والبكاء عليه، البكاء الحارق حد الانصهار والذوبان!

ظل واقفًا في مكانه، حتى تنفس الصبح، وبدأت العصافير تزقزق، ثم رفع بصره عاليًا لعله يرى طائره المفضل الذي كلما رآه انبعثت داخله الراحة والطمأنينة وانشرح صدره، راقب ببصره كل شيء يدور في السماء، شرد قليلًا وأغمض عينيه لبضع دقائق، ثم عاد لينظر بتدقيق أسفل قدميه، كمن يبحث عن شيء قد فقده، حتى استوت الشمس وأصبحت عمودية، سمع حينها أنباء بقدوم المتوفّى من مشرحة زينهم، فتحرك مسرعًا نحو الطريق المؤدي إلى المقابر، وبعد ربع ساعة وصل إلى هناك، ظل يراقب الطريق ببصره، عله يراه قادمًا من بعيد بسيارته، آملًا أن يكون خبر موته مجرد مزحة ثقيلة، وأن كل ما يحدث مجرد كابوسٍ مزعج، حتى ظهرت سيارة الإسعاف التي تحمله، حينها عاد لوعيه وعلم أنها الحقيقة المُرّة التي فرضت نفسها عليه ويجب أن يتقبّلها بل ويتلذّذ بنكهة علقمها.

وقفت السيارة ووقف هو بالقرب منها؛ بضعة أمتار هي ما كانت تفصلهم لتكدس الناس وحيلولتهم بينهما، حاول أن يراه وهم ينزلونه منها، لكن حشدًا عظيمًا من الوجوه المنتحبة كان يزاحم

رؤيته من بعيد، لم يودعه، ولم يسمحوا له بذلك، قال لأحد أعمامه:

- أريد أن ألقي نظرة أخيرة عليه، لا أريده أن يشعر بالوحدة في هذا المكان البارد - مصلحة حفظ الجثث - فليس عدلًا أن يشعر بالغربة حيًا وميتًا.

لكنه رفض بشدة ومنعه من الاقتراب قائلًا له بتهكم:

- بدلًا من هذا الهراء، احمل سلاحًا وخذ بثأره.

"كيف يتحدث هكذا رغم أن الثأر ليس ثأري ولا أيضًا ثأره؟ نحن أبناء عائلة واحدة لكن كل منا ينتمي لضلع غير الآخر، فالضلوع هنا مختلفة تمامًا، القريب ثم الأقرب ثم الذي يليه".

فكر دون النظر إلى المتحدث، ثم ابتعد عنه وراقب بعينيه نزول جثمان صاحبه من عربة الموتى، تابعه بنفس النظرات وهو يراه يُحمل على أكتاف أربعة من الرجال، حاول أن يتقدم نحوهم ليأخذ بدوره مكان أحدهم، لكن قدماه أبتا أن تحملاه وتسيرا به نحوهم، جلس على ركبتيه في وضعية القرفصاء، وغطّى رأسه بكلتا يديه كي يواري دموعه التي انسابت من عينيه رغمًا عنه، ظل

هكذا وأقدام الرجال الذين يسيرون خلف الموكب تخبطه في ظهره ورأسه أحيانًا، وهو لا زال على وضعيته، حتى انتهوا من دفنه، ووقف كبيرهم فوق قبره، وألقى السلام على نبيهم، ثم بدأ يصيح فيهم بأعلى صوته:

- لا عزاء لنا، ولا راحة قبل القصاص، فشهيدنا الآن في قبره يتقلب يمينًا ويسارًا، ويدور به قبره رافضًا احتضانه قبل أن يجيء وليُّه بحقه، شهيدنا مات عمدًا، وفقيدهم مات خطأً، من لم يحمل منكم السلاح فالأفضل له أن يرتدي حجابًا ويجلس في بيته.

-كلمات نائية تلك التي سمعتها، وجهل متعمد ومتوغل داخل عقل من تحدث به، ومن آمن بحديثه، كان عليه أن يوجههم لما هو أطهر وأنقى من ذلك، كان عليه أن يعلمهم كيف يغلقون الثقب الذي يتسرب منه فيضان الدم.

حدث نفسه بذلك، ثم نهض من جلسته، وأعطى ظهره للمقبرة ومن يجلسون أمامها، وتحرك متجولًا في مدينة الموتى، كان يقف عند كل لافتة موضوعة فوق رأس أحدهم ليقرأ على روحه الفاتحة، يعرفه كان أو لا يعرفه لم يكن يهتم، فكل ما همه وخطر

بباله هو سؤال صاحب اللافتة عن حاله بعد الموت، وحال مسكنه الحقيقي، وهل يسمع أنين جيرانه من الموتى وضحكاتهم وبكائهم ليلًا؟ أيشعر بالوحدة كحال معظم الأحياء؟ أم أن للموتى جلساء وأصدقاء يشاركونهم وحدتهم!

أسئلة كثيرة سألها لنفسه ولسكان المدينة الخرساء ظاهريًا، لا زال يهيم في المدينة حتى تسمر عند قبر أحد معارفه الذي أخذه الموت بغتة وهو جالس في إحدى الحانات يحتسي الخمر، حينها بكى بشدة وسأله عن الخمر الذي احتساه وقت موته هل نفعه في قبره؟، سأل سؤاله ولم ينتظر أن يفكر في الإجابة، أشاح بوجهه بعيدًا عنه فوقعت عيناه على لافتة أخرى منقوش عليها اسم أحد الرجال المعروفين في قريته بشدة فقرهم، ابتسم حينها ابتسامة صافية ثم انحنى بقامته ليقبل الحجر الموضوع فوق رأسه ويقول بسعادة:

- هنيئًا لك، طبت حيًا وميتًا، لقد كانت موتتك فخرًا لكل من كان يعرفك، ولأبنائك وأحفادك من بعدك، وستكون شفيعة لك عند ربك يوم حسابك، وكيف لا تكون وقد فارقت الحياة وأنت ساجد بين يديه.

فكّر وتحدث إلى صاحب المقبرة، ثم رفع بصره إلى السماء فرأى الشمس تستعد للرحيل، أخفض بصره كي لا يبكي مرة أخرى، فكل شيء في هذا الكون يرحل عند انتهاء أجله.

ثم عاود المشي والتجول بين المقابر حتى ساقته قدماه إلى مقبرة صفوان، صوّب بصره نحوها، وقد رأى أن الناس قد تركوه ورحلوا، وأصبح وحيدًا في قبره، تحرك نحوه وجلس فوق رأسه وبدأ يحدثه:

- حتى أنت تركتني وحيدًا، لن أغضب منك، لكنك وعدتني أن تبقى معي، وتُساندني، لِمَ ذهبت؟ لماذا قُدّر لك أن تذهب؟ لم يعد هنالك شيء جميل في حياتي إلا رؤياك في منامي وأحلامي، اشتقت لك كثيرًا، أين ذهبت وتركتني هكذا أجاهد وحدي، لم تخليّت عني وتركتني أكمل دربي بمفردي؟ ألم تقل لي أنك تود البقاء هنا بين أهلك وأحبابك وأنك لن ترحل وتود قضاء رمضان معهم؟

ألقى بعض أسئلته على صديقه الذي لم ولن يجبيه أبدًا إلا إن أراد الله، وستكون عبر رؤيا يريه إياها في منامه؛ ثم أمسك رأسه وضغط عليها بشدة فصداع رأسه أرهقه كثيرًا، حتى أنه شعر أن

ساكنيها راقصات غجريات ومجانين يقذفون الحجارة على العوالم الفاسقة، وطفل مدلل يصرخ ويبكي حتى أنه يحطم المرايا ويمزق الزهور، حينها ازداد في الضغط عليها وهتف بصوت مسموع:

- أمر مضحك ما يجري في قبوي الصغير! لا أدري هل كنت صائبًا حين اخترتُني ممثلًا للمتمردين والمترددين، لا أدري هل ما زلت ماءً حين سقط الفأر في جوفي! الغموض يلف أرجاء حديقتي، فحين ظننتها اتسعت وامتلأت فراشات، كانت في الواقع تتحول لمقبرة صغيرة، دفنت فيها الكثير ممن أحببتهم، وممن كرهتهم، لم تعد هناك سوى روائح غريبة وأشواك.

"يقولون بدعة أن تُسقى المقابر، بدعة أن تحدث الموتى، ولكني سئمت الأحياء، وجوههم، منطقهم، زيفهم حتى حدائقهم، آه كم سئمت الأحياء ذوي القلوب الميتة، والعقول الحقيرة، سئمت الأقنعة، ألا يحق لي أن أبقى هنا مع من أحدثهم سرًا في مقابرهم، وأسهر معهم، وأحكي لهم عني وأنا أكذب عليهم، عن حقيقة ما تركوه خلفهم من حقارة الأقنعة، ألا يحق لي الكذب حتى لا يشعرون بالقرف ممن كانوا يظنون أنهم يكنون لهم في

دواخلهم كل الحب والاحترام، آه صداع أصبح يرافقني ولم أعد أستغنى عنه".

وعلى حين غفلة منه وقت انخراطه في البكاء انتبه لزقزقة طائره مما جعله يبتسم ابتسامة رثاء ويقول:

- عجيب أمرك أيها الدرغل، دائمًا تحضر وقت حزني وضيقي، وكأنك جنديًا من جنود الله المكلفين بالتخفيف عن عباده.

رفع بصره إلى السماء بحثًا عنه، لكنه لم يرَ سوى النجوم فقط، ولا زال الصوت مستمرًا بعزفه مما جعله يخفض بصره ليبحث به عن حبيبه بين المقابر، لكنه حين بحث بأذنيه علم أن الصوت نابع من هاتفه، فهذا الصوت العذب من شدة عشقه لصاحبه جعله موسيقى لهاتفه مخصصة لزوجته المستقبلية التي وقع عقد قرانها لكنه لم يدخل بها بعد، وضع يده في جيبه وأخرج هاتفه ثم مسح براحته اليمنى دموعه التي غمرت وجنتيه بينما حرّك إصبعًا من يده اليسرى ليضغط به على زر الاستقبال منصتًا للحديث الذي ستلقيه عليه ابنة خالته، سمع صوتها العذب الرقراق وهو يناديه كالعادة:

- أين أنت أيها الدرغل؟

لم يرد عليها فتابعت بحنو يلين له الحديد وتهتز لرقته الجبال:

- أين أنت يا من ملكت الفؤاد، وتملكت الأنفاس، ونادتك الحواس، واشتاقت الأعين لرؤيتك؟

أجابها بنبرة حزينة:

- أنا بالمقابر.

اهتز جسدها من شدة ضربات قلبها وهتفت بقلق:

- ماذا تفعل في المقابر؟

احتفظ بصمته قليلًا حتى أخرجته منه عندما أعادت سؤالها مرة أخرى، ولكن هذه المرة بصرخة مرعبة أطلقتها خوفًا عليه فأجابها برثاء:

- أُحدِّث الأموات فهم ينصتون لحديثي، ويفهمونه جيدًا، ويبّثون فيّ روحي الطمأنينة.

سقطت دمعة من عينيها، تبعتها شهقة مرعبة خرجت لتواسي دمعتها اليتيمة ثم أردفت بحكمة:

- أريد رؤيتك الآن، أنا في انتظارك، لا تغب عني فأنا منذ يومين لم يدخل الطعام جوفي وأريد أن أتقاسمه معك على العشاء، والطريق لن يستغرق منك إلا نصف ساعة فقط.

أجابتها نبضات قلبه قبل لسانه بأنه قادم لأنه اشتاق لرؤيتها، فوجهها يخفف عنه وطأة الحيرة، ويبعث في نفسه الأمل، لكنه بعد أن أنهى المكالمة معها أطلق من عقله شرارات واسعة من الأفكار التي مكثت طويلًا داخل جمجمته.

كيف أستطيع فك عقد التناقضات؟، الواقع يناقض الأمنيات بل ينازعها شرف السكينة والسلام، أضعت الكثير من الوقت بحثًا عن إشارة في السماء بينما كانت الإشارات في صدري.

اغرورقت عيناه بالدمع وشعر بضيق في صدره الذي أصبح كحبة سمسم، لا رحابة ولا سعة ولا موضع قدم لريشة ساقطة من السماء، اضطجع على يمينه بجوار قبر صاحبه وظل يفكر فيما آلت إليه قريته حتى مضى من وقته ربع ساعة تقريبًا وهو مضطجع كجثة هامدة نُسيت بعد معركة طويلة، جثة فقدت ذاتها عندما قررت خوض غمار الحياة.

ظل هكذا دون حركة حتى وكزه الشوق في قلبه فتذكر موعد حبيبته، نهض مسرعًا وتحرك خارج المقابر وصولًا إلى الطريق السريـع، لوح بيده لسيارة الأجرة التي لمحها من بعيد تقترب منه وعندما رآه السائق أوقف السيارة وفتح له بابها ليصعد داخلها وعندما جلس على الكرسي خلف السائق، أسند رأسه على المقعد وأغمض عينيه فراح في سبات عميق استغرق نصف ساعة حتى أيقظه السائق بلكزات قد لكزه بها في جنبه مع نبرة صوته الغليظة التي خرجت من حنجرته لتوقظه:

- أيها الفتى، استيقظ، لقد وصلنا إلى المدينة.

فتح عينيه نصف فتحة، وسرعان ما التصق بالكرسي الذي كان يجلس عليه، حيث أخذته القشعريرة، وتملكه الخوف من هيئة السائق الذي فاجأه بهيئته الضخمة ووجهه المجعد، حدث نفسه حينها كأنه يحدث شخصًا آخر:

- ما هذا؟ لم أكن سيئًا للغاية حتى يأتيني ملك الموت على هذه الهيئة البشعة!

كان يعلم أنه يتشكل على هيئة عمل الإنسان، فإن كان صالحًا أتاه في أبهى صورة، وإن كان غير ذلك فلن تسره رؤيته، ظل يفكر وهو منكمش في كرسيه حتى ابتسم له السائق وهتف فيه بسرور:

- ربما لم تنم منذ فترة، ولكن هذا ليس مكانًا للنوم، انهض واذهب لزوجك، أظنها في انتظارك.

كان الرجل على علم أن سكان هذه البقعة من الأرض يزوّجون أبناءهم في سن مبكرة، قد لا يتجاوز الذكر منهم الثامنة عشرة من عمره ويكون لديه طفلين وربما امرأته على وشك المجيء بثالث، حينها ابتسم الفتى في وجهه ومد يده في جيبه وأخرج بعض النقود وأعطاه إياها ثم ترجل عن السيارة، نظر حوله فرأى كثيرًا من الناس يجلسون على المقاهي التي زينت هذه المدينة، عندما رآهم هكذا وسمع ضحكاتهم العارمة اغرورقت عيناه بالدموع، فقد تذكر أهل قريته وهم يتسامرون ويمزحون فيما بينهم قبل حلول هذه الكارثة عليهم، مما جعله ينظر لأعمدة النور التي أضاءت شوارع المدينة ويتمنى لو كان أحدهم، كان سيصبح أكثر هدوءًا وسعادة لكونه يضيء للناس طريقهم.

رفع بصره لأعلى حيث مصابيح الأعمدة ثم هتف بصوت مسموع:

- ليتني كنت الأب أو الابنة.

قال جملته وتحرك بخطواته الواسعة وهو يراقب كل شيء حوله حتى وصل إلى منزل خالته وأم زوجته المستقبلية، وقتها تسارعت دقات قلبه بشدة، فعلم أنها تنتظره كعادتها بجوار النافذة تطل برأسها لتلمح ظهوره، وجّه عينيه نحو النافذة بأمر من قلبه، فشُل بصره من شعاع النور الذي خرج من عينيها ليصيب قلبه، مما جعله يبتسم ويقول:

- أغمضي عينيكِ، فالشمس وضعت فيهما سحرها وحرارتها، والقمر قد اتخذهما مسكنًا له، فلو ظللتِ مُفتَّحة العينين لاحترقتُ، وأصابتني لعنة جاذبيتك، وما نفعني القمر في شيء.

حينها أحست جملته بقلبها، فارتسمت الابتسامة على شفتيها، وأشارت له بالصعود، مما جعله يبادلها تلك الابتسامة الجذابة وهو يتحرك نحو البناية، تجاوز درجها بخفة كلصّ محترف، حتى أصبح أمام باب شقتها، فتحت له الباب ليدلف إلى الداخل لكنه

تسمر مكانه، مصوّبًا بصره نحوها وكأنه كان يراها لأول مرة، فسبحان من خلقها وسوّاها على هذه الهيئة البهيّة، فهاتان خصلتان من شعرها الذهبي تمردتا على حجابها البني، وخرجتا لتُعلنا عن جمالهما في وجه ذاك الذي امتلك قلبها، وعينان لامعتان، ممتزجتان بخضرة الجنة، تعلوان أنف صغير مرسوم بدقة يُشرف على شفتين كهلالين ثابتين في وجهها طوال العام، أمّا بشرتها فبيضاء، تفوق بياض الثلج، ليخطف بصره الوجنتين اللتين طغى عليهما لون الدم، فأصبحتا جذابتين كصاحبتهما، تلك التي ازداد جمالها بجسدٍ يسلب الناظر الأنفاس، فكل شيء فيه يعلن عن استقلاليته.

طال صمته وتأمله في جمالها حتى أخرجته منه عندما قالت:

- هل ستظل تتأملني هكذا كثيرًا؟

ابتسم لها ابتسامة صافية، ثم احتضنها بعينيه وهو يسير بخطواته داخل الشقة، كم كان يود أن تحتضنه هي، لتذيب أوجاعه بين ذراعيها، ويلملم الحزن حقيبته ويرحل عنه دون وداع، لكنه يعلم أن حياءها يمنعها من احتضانه، وأنها لن تفعل هذا مطلقًا إلا إذا أصبحا تحت سقف واحد؛ ورغم هذا وجب

عليه هو أن يبادر بفعل ذلك، فالنساء في هذه البقعة يختلفن كثيرًا عن نساء المدينة الكبرى، فهنَّ لا يعبِّرن عن حبّهِن، ولا يخلعن عنهن رداء الحياء أبدًا، ولا يتفوّهن بكلمة أحبك، وإن غرقت الواحدة منهن في عشق الرجل ما دام لم يدخل بها؛ فالحياء عندها كالحارس العنيد الذي يقف فوق الشفاه، مانعًا خروج تلك الكلمة وما شابهها، ورغم كل هذا، فقد تعجّب من جرأتها التي أحسها في تلك الزيارة، والتي اختلفت كثيرًا عما سلف من الزيارات!.

"ربما أحسّت باحتياجي لها؟ وربما لأنها تعلم جيدًا مدى علاقتي وحبي لصفوان الذي رحل، فأرادت أن تخفف عني واستدعتني إلى هنا بهذه الجرأة، لتمسح عن قلبي بعض أحزانه، وأوجاعه التي تراكمت عليه، منذ حلول تلك النكبة".

فكّر في هذا وهو يتجول داخل الردهة، حتى ساقته قدماه إلى غرفة خالته المريضة التي لا تستطيع النهوض من فراشها؛ فقد أصابها عجز نصفي منذ عام وأكثر، وما إن رأته حتى فتحت ذراعيها ببطء لتحتضنه، مما جعله دون إرادة منه يلقي بنفسه بين أحضانها، بينما ابنتها في هذه اللحظة سقطت من عينيها

دمعتين سهوًا منها، وتحركت جميع جوارحها نحوه لتحتضنه هيَ الأخرى، تضامنًا مع معاناته، ومؤازرة له.

طال عناق (الخالة) له، وشردت معها الفتاة التي احتضنته بجوارحها في خيالها حتى همَّت أن تفعلها حقيقة، فقد تحرّكت خطوتين حتى أصبحت خلفه، وفتحت ذراعيها، وما أن همّت باحتوائه داخلهما حتى صاح ضميرها غاضبًا بأمر من حيائها:

- احتشمي.

فتراجعت بخطواتها، لكن من شدة توترها، لامست قدمها قدمه قبل أن تبتعد، مما جعله ينهي عناق خالته ويلتفت إليها وهي تتراجع بارتباك، وعندما لمحته ينظر إليها، زاد ارتدادها إلى الخلف، فارتطمت بالمقعد المتحرك الموضوع بجانب الباب، لتهوي إلى الأسفل، فتفترش الأرض راقدة على ظهرها، مما جعله يهرول نحوها سريعًا، وينحني ليحملها عن الأرض، لكنها رفعت يدها في إشارة منها له بالابتعاد، حينها رفع قامته، وأخفض بصره في خجل، بينما يده لا زالت ممتدة لها كي يساعدها على النهوض، فما كان منها إلا أن أمسكت بيده، ونهضت بابتسامة مترددة خجلى وقد تخضّب وجهها حياءً، ثم سحبت يدها من قبضته

الدافئة ليتركها على مضض، فيما تحركت هي خارج الغرفة، متجهة إلى المطبخ، كي تعد له الطعام، ولكنها لم تكد تخطو خطوتين حتى سمعت طرقات خفيفة على باب المنزل، فتحركت نحوه، وعندما فتحته كان الطارق أباها، فتنفست الصّعداء حينها، وهتفت بهدوء ممتزج بابتسامة خفيفة:

- مرحباً، أبي طارق هُنا.

لاحظ الأب احمرار وجنتيْ ابنته، مما جعله يحتضنها بقوة، وكأنه علم أنها تحتاج في هذه اللحظة لمثل هذا النوع من الأمان، والطمأنينة، واحتواء خجلها؛ فهي الابنة الصغرى له بعد اثنتين قد تزوجتا، أما هو فقد ظل متسمرًا أمام غرفة خالته وهو يحدق في الرجل المسن مديد القامة وهو يحتضن ابنته، ذاك الخمسيني الذي يناديه "خالي"، فعلى الرغم من أنه زوج خالته، إلا أنه ابن عم والدته، والصديق المقرب لوالده منذ الطفولة، فعندما يراه يشعر بالطمأنينة وكأنه يرى والده، فالملامح واحدة، تميزهما تلك اللحية التي تزين وجه كليهما، وبعض الشعيرات البيضاء التي ظهرت في رأس كل منهما، فلا يختلفان كثيرًا إلا في الأسماء فقط، فالأول يدعى (منير)، وهذا الذي يحتضن ابنته

يدعى (عامر)، وهو بالفعل عامر قلبه بالإيمان، وعقله بالعلم، ولسانه بالحكمة.

أنهى الرجل عناق ابنته بعد أن ربّت على ظهرها، وتحرك نحوه وهو لا زال متسمرًا في مكانه، شارد الذهن مشتت الفكر، حتى خرج من شروده وانتبه لواقعه عندما مد الرجل يده ليصافحه، حينها صافح الرجل وأضاف إلى تلك المصافحة ابتسامته المعتادة، لكن هذه المرة لاحظ الرجل أن تلك الابتسامة ما هيَ إلا مجاملة له فقط، فهي تميل إلى البكاء أكثر من الابتسام، فالحزن يقيم مأتمًا على شفتيه، وتلك الابتسامة الساذجة التي زينت وجهه، شبيهة بطفلة صغيرة، لا تتجاوز أربعة أعوام، تلهو وتلعب في عزاء والدتها، غير مدركة لما فقدته من حنان وأمان، أطال الرجل التحديق فيه متأملًا ملامحه، ليعرف سبب حزنه رغم أنه ملمّ بالأحداث التي دارت ولا زالت تدور في القرية ثم انطلق يحدّثه:

- كيف حالك؟ هيا بنا نجلس لنتحدث قليلًا كي نضيّع وقت انتظار الطعام.

هكذا تحدث الرجل ثم تحرك نحو الردهة، وهو لا يزال قابضًا على يده يصطحبه خلفه، بينما فاتن تحركت بتباطؤ نحو المطبخ وعيناها لا زالتا مصوبة تجاهه مما جعله يبتسم ويقول في نفسه:

- انتبهي عزيزتي، ربما هذه المرة إن ارتطمتِ بالحائط ستدفعينني لقتل خجلي واحتضانك.

جلس الحكيم وبجواره زوج ابنته، ثم ربت على يده وقال:

-لِمَ أراك حزينًا هكذا؟

انتبه لسؤاله وأجابه:

-وكيف لا أحزن وكل شيء حولي يعلن عن دماره!.

لينظر إليه بعينين حزينتين معلّقًا بحكمة:

- الحزن يا ولدي ممر ضيق، لا بد أن تعبر منه كي تصل إلى ساحة السعادة، فهو مثل الدنيا يحتاج صبرًا منّا حتى يفارقنا ونحن سعداء.

حملق الفتى في وجه الحكيم وهتف بتساؤل:

-وكيف لنا أن نصبر على بلاء اقترفناه بأيدينا وتسبب لنا في الحزن الشديد؟، كيف نصبر على فراق من نحب؟، بلْ كيف نضمن لقاءهم في الآخرة؟

احتضن الرجل كفه بين يديه ثم تنهد بعمق وأجاب:

- عندما كنت في عمرك، كنت دائمًا أتساءل:

_ "كيف يكتسب البشر الحكمة؟"

بحثت كثيرًا وقرأت أكثر علّني أجد إجابة مناسبة لسؤالي، لكنني ما وجدتها إلا عندما بلغت من العمر عتيًا.

اتسعت مقلتاه في تركيز قبل أن يهتف بلهفة:

- كيف يا خالي يكتسب البشر الحكمة؟، أنا أيضًا سألت نفسي هذا السؤال، وبحثت عن الإجابة داخل صفحات الكتب العلمية والروايات، ولكنني ما عدت مقتنعًا بما يكتبه البعض، وهذا لأنني وجدت في كلماتهم مثالية تنافي واقعنا، وكأن أحدًا قد استأجرهم ليضلُّونا بزيف كلامهم، فالواقع أشد بؤسًا مما حملته أوراقهم.

رمقه الرجل بنظرات شفقة وأجابه:

-إنهم يكتسبونها بالمعاناة، بها وحدها، بالاعتياد على السقوط والتهشم والانهيار، وبفقدان الأمل والكفر بالنور الذي يأتي من آخر النفق، وبمجالسة الفقراء والخائبين والفاشلين والمنهزمين، فهؤلاء لن يسردوا لك تجاربهم الممتعة، ولن يرووا على مسامعك مغامراتهم، هم لن يصفوا لك أجساد حبيباتهم، لن يحدثوك عن الحفلات والسهرات وأعياد الميلاد، هؤلاء لا يعرفون "البريستيج"، ولا تشرق عليهم شمس فرح قط، هؤلاء الذين ألفوا العيش في الظلام، الذين ولدوا على الهامش وتسلقوا نخل غرائزهم ليصلوا للثمرة، لليأس الناضج، وليمسكوا بأيديهم "سخاء الحزن"، عاشروا العالم القذر، وفهموا معنى "ألا تعثر على يد تمسك بها"، فهموا كم أن التشبث بالوهم جريمة وماذا يعني "أن لا تجد مكانًا تذهب إليه !".. آمنوا بفكرة "أنّ لا شيء يعلو على سلطة الموت، وأن التعاسة معبر ضيق لكنه حقيقي جدًا، غير معابر الأمل الزائفة" هؤلاء فقط منْ تستطيع أن تكتسب منهم الحكمة، ثم تجعلها مصباحًا يضيء حياتك وحياتهم.

رفع الشّاب حاجبًا وأخفض آخر، في حركة طريفة منه، كما تفعل النساء عادة عند عدم فهمهن لأمر ما، أو عدم تصديقهن

للحديث المُلقى على مسامعهن ثم سأله عن كيفية إقناع من ذكرهم في سالف حديثه أنه يستطيع إنارة عتمتهم بحكمته التي اكتسبها من معاناتهم وانكساراتهم فأجابه الأول بإيجاز:

- بالحكمة، فالحكمة ابنة الصّبر، ومن اكتسبها كان أباها بالتبني، وذلك إن صبرت وأنصتت بكل جوارحك لسماع معاناتهم، ولمست ذلك بقلبك، حينها فقط، تستطيع أن تضيء عتمتهم.

-لا أخفي عليك أني ما عدت أثق بالمفاهيم الشاملة للحياة، وأن أي تعريف لها أصبح يدخلني في دوامة من التساؤلات والشكوك، فأنا منذ أن حلّت النكبة على بلدتنا بدأت أفقد قدرتي على الاستيعاب وأصابُ أحيانًا بشلل في الفهم، وبعسرٍ في هضم أي فكرة كانت، وبدوار فظيع يحيل كل الأشياء المبهرة أمامي إلى أشياء أقل من عادية، لست أبالغ إن قلت أني في معظم الأوقات لا أحس بجسدي وأطرافي، ولا بيدي التي تتسلل خلسة لجيب سروالي الخلفي لتسحب علبة السجائر منها، ولا برأسي الذي أضعه على الوسادة فيغرق في بركة من القطن والدم والأوهام، ولا بالأشخاص الذين يعبرونني وأعبرهم بصفة دائمة، ولا حتى

بطعم الوقت النيئ الذي كنت أدوّره في فمي كل هذا بات لا يعني لي شيئًا.

تحدّث بهذا وهو يتأمل وجه المُسن، كان يتمنى أن يحتضنه كي يخفف عنه وطأة الألم التي حاصرته، لكن الرجل احتضنه بحديثه الطيّب حين قال واعظًا إياه:

-إياك يا ولدي أن تجعل هذا الدهليز المظلم من اللا شعور يسحبك إلى أبعد نقطة فيه، وربما أعمقها.

فأخذ نفسًا عميقًا إثر جملة العجوز ثم زفره ببطء وقال:

- أنا والعالم ضد نفسي، وهذه قسمة غير عادلة.

ابتسم الرجل ابتسامة صافية، أراد أن يبث فيه من خلالها الطمأنينة ويبعث الأمل، ثم تبعها بكلمات أشبه بالبلسم الذي يوضع فوق جرح كفيف:

-" إذًا من المفترض على الأقل أن تقف في صفّ نفسك ولو لمرة واحدة، أن تهزم الخذلان الذي تراكم على هذه الكومة من اللحم والعظم والأعصاب".

قالها مشيرًا بسبابته إليه ثم تابع بنفس النبرة الواعظة قائلًا:

_"مستشعرًا عظمة الله في نفسك، قاتلًا هذا الضعف الهائل الذي يسكن الإنسان المشوّش الذّهن، الملول، المعقّد ذلك الحاقد على وجوده، واليائس من إمكانية ظهور شيء واحد يستحق أن يقاوم لأجله".

سكت قليلًا ثم تابع مستطردًا:

- أعلم أن صفوان كان أقرب المقرّبين إليك، لكن لا تنسَ أنها إرادة الله وحكمته.

في حين أغمض هو عينيه وفتحهما إثر حديثه، كان يود تحريك ستائر الكون قليلًا ليتمكن من النظر إلى "الأبد"، أن يلمس الأشياء بدهشة الكائن الذي استفاق من غيبوبة طويلة، ويكتشف ويتحسس ويحملق ويشم ويرهف السمع، ويستشعر الدفء الذي أحس به يعقوبُ وهو يدفن وجهه في قميص النبوة، ليصرخ ملء فجائعه أن"شكرًا لله الرحيم "

أخرجه من شروده صوت حبيبته عندما قالت:

-العشاء جاهز.

رفع بصره ينظر إليها فما زادتها نظراته إلا خجلًا، لتنصرف من أمامهما متجهة نحو "السفرة"، فنهض الأب وتبعه وهو يحدث نفسه قائلًا:

- الآن فقط أرى عالمي الخاص، أخرج من كهفي لأقول كلمتي الأخيرة، ليس ذنب الريح لكن سقف توقعاتنا لم يكن سوى بضع خيوط وأعواد كبريت، ولأن الخروج من الباب الضيّق آخر الخيارات، فلم أحمل معي سوى قلبي، هذا الصامد في وجه إعصارات المحن وزلازل المصائب.

شرد في حبيبته الخجولة قبل أن يتابع حديثه الهامس مع ذاته:

- أعلم أنه لا يجدر بي قول هذا، لكن عبقرية الله في خلقنا غريبة، إني أؤمن أنه لا يتركنا بمفردنا أبدًا، لكني أخاف على نفسي من أن تنتهك حرمتها وجلدها بسياط الفناء، آسف يا الله، آسف لأني جائع ومتعب ويائس، آسف لأني لا أنام ولأني أكره عالمك، لكني أحبك أنت! أحبك أكثر من كل شيء، فلتغفر لي فظائع أعمالي وأقوالي، فلتغفر لي هذا الطمع..

"طمعي في رحمتك".

كلمات قالها عقله وهبطت عبر أوردته حتى وقعت على قلبه كقطعة ثلج أطفأت نيرانه، فانعكست رطوبتها على ملامحه حتى عادت إلى لونها الطبيعي، بيضاء مشربة بحمرة، حينها تنهد بارتياحية شديدة، وجلس على طاولة الطعام، كانت تجلس أمامه فاتنته وهى تتمعن النظر إليه بإعجاب، بينما أبوها يجلس على الكرسي الرئيسي للطاولة، ظل كل واحد منهما يحدق في عيني الآخر بلهفة واشتياق وكأنهما لم يريا بعضهما البعض منذ عدة سنوات، وقف الحديث على شفتيها، كانت تريد أن تنطق بمعسول لولا حيائها، نسيت أن أباها يجلس بينهما وأطالت التحديق فيه حتى أنه ارتبك وهو يرفع ملعقة الأرز إلى فمه فالتصقت بعينيه، مما جعلها تفقد السيطرة على ضحكاتها العارمة، لينظر إليها والدها نظرة عتاب، جعلتها تنهض على الفور وتتحرّك مسرعة نحو غرفتها، أمّا العاشق الولهان فقد ترك الملعقة وغطّى وجهه بكلتا يديه، كي يواري خجله من والد زوجته، الذي ابتسم في نفسه وقال:

- لابد أن أنهي هذا الشوق بالزواج، خشية أن يقعا في المحظور، فاني أرى الشوق قد بلغ منهما الحلقوم.

وبينما كان يحدّث نفسه، كان الشاب قد انتهى من طعامه وتحرك نحو الحمام ليغسل يديه، نظر الأب إلى غرفة ابنته فرآها تخرج منها متجهة نحو الحمام وبيدها منشفة، فنهض على الفور واعترض طريقها، ليتناول منها ما تحمله مشيرًا لها برأسه أن تعود إلى غرفتها، ضربت الأرض بقدميها في تذمر، قبل أن تعود من حيث أتت، وهناك جلست على فراشها وقد دفنت رأسها بين ركبتيها وأخذت تفكر:

- يا لك من "درغل" تقف بهذا الثبات وكل تلك الثقة والحب الذي ازدهر في عينيك على الرغم من انكساراتك، فهذا يعني أن هالة من العناية الإلهية تحيط بك، تحميك، تجعلك مزهرًا رغم الألم!، أنا أعلم أنه كان أحب الناس إلى قلبك، وأن فراقه عليك ليس هينًا، كنت أظن أنك مهزوم مكسور ومحسور، لكنني وجدتك أقوى من كل الصدمات، فليباركك الله ويحفظك، فأنا لا أريد من الدنيا سواك.

تدفقت الكلمات والأدعية من عقلها وقلبها وتحركت بها شفاهها في صمت كشلال مياه، حتى أوقفها صوت أبيها المرتفع حين هتف متسائلًا:

- هلْ أطمعتِ والدتك؟

تحركت مسرعة نحو الخارج إثر سؤاله وأجابت:

- بلى، لقد أكلت وتناولت الدواء قبل قدومكما.

فنظر إليها نظرة رضى معقّبًا:

- حسنًا، فلتحضري لنا كوبين من الشاي.

هرولت نحو المطبخ من فورها، وبعد ثوانٍ عادت وهي تحمل كوبين من الشاي، حيث قدمته إليهما، وتحركت بعدها نحو مائدة الطعام، فبدأت تلملم بقايا الطعام وهى تختلس بعض نظرات الشغف من عيني حبيبها، شرعت تنظّف الطاولة على مهل قرابة الربع ساعة، حتى انتبهت لنظرات والدها التي أكلتها غيظًا، فأنجزت عملها وتوجهت نحو غرفتها وكذلك الأب أمر الفتى أن يدلف إلى غرفته كي يستريح من مشقة التفكير الذي ربما يقتله إن ظلّ مستحوذًا عليه، لينهض "الدرغل" دون حديث متوجّهًا نحو الغرفة المُعدّة له خصيصًا، ما إن دلفها حتى أغلق الباب خلفه، وألقى بجسده المتعب فوق السرير وراح في سبات عميق.

****

أتى الصباح مبشّرًا باستيقاظ العاشقين في لحظة واحدة، كل منهما رأى الآخر أمامه يوقظه بأرقِّ الكلمات، فارتسمت الابتسامة على شفاههما، ورددا العبارات بألسنتهما، ثم خرجا من غرفتيهما في توقيت واحد، نظراتهما تقابلتا وابتساماتهما اختلطتا معًا رغم المسافة التي تفصلهما، ظلا واقفين يتأملان ملامحهما حتى سمعا صوت الأب وهو يسعل ويتنحنح وكأنه أراد أن يرسل إليهما رسالة باستيقاظه، حينها فقط تحرك الشاب نحو الحمام، وكذلك هي تحركت نحو غرفة والدتها كي تطمئن عليها، وبعد مرور بضع دقائق خرج من حمامه وجلس في الردهة ينتظر أن يخرج "خاله" من المرحاض بعد أن دلفه عقب خروجه، مرت خمس دقائق وهو لا يزال موجهًا بصره تجاه غرفة خالته، يريد أن يراها، أن يمني نظره بوجهها الجميل وقوامها الممشوق، همّ بالنهوض من مقعده وعزم أن يدلف داخل الغرفة ليطبع قبلة على جبين خالته، لكنه عدل عن الأمر خشية أن ينزعج الحكيم من فعلته فعاد إلى مقعده ثانية وانتظر خروجه، أصبح يقلب بصره يمينًا ويسارًا، لمحة إلى الغرفة وأخرى إلى الحمام حتى رآه

يخرج، أخفض بصره وانتظر إلقاء التحية عليه، وحين ألقاها الرجل استأذنه في الدخول إلى خالته فأذن له بعد أن قال :

- حاول أن تكون لك لوحة بيضاء وقلم رصاص وألوان، وأينما تحلّ ضيفًا على مكان مليء بالبشر، أو خالٍ من ملامح الحضارة والإنسان، لا بد أن تكون لك فرشاة تعانق البياض، وتصافح الطبيعة الصامتة، وتلامس النسيم وترحل معه لأقاصي الخيال، كن إنسانًا لا يمثله رداء وطن ولا شعار، ابتكر لذاتك فكرة عن مجتمع لا حدود له من شرق الأرض إلى مغيب الشمس، ابتدع لنفسك مفهومًا خاصًا عن تكاتف البنيان، واللُحمة الوطنية.

ابتسم الفتى ابتسامة صافية وهو يتحرك تجاه الغرفة ثم استدار إليه وقال:

- هويت فيمن هوى، ونضجت من كيس تجاربي المليء بالأخطاء والعثرات، وتأملت في حياتي ما بين الماضي والحاضر والمستقبل، فما وجدت إلا كلمتين تلّخص كلّ شيء، وتفي بالغرض والعرض والطلب والمضمون، ألا وهُما (كنْ فيكون).

أومأ الحكيم برأسه دليلًا على تفهمه لما قيل له ثم جلس على مقعده وانتظر خروجه من غرفة خالته، بعد دقائق خرج ثم تقدم نحو الرجل يستأذنه في الانصراف، لكن الأخير نظر إليه بحب وقال:

-انتظر، طعام الإفطار سيكون جاهزًا بعد قليل.

قال جملته ثم صاح بصوت مرتفع:

- فاتن.

ردت عليه بنبرة مماثلة:

- حاضر أبي، ثوانٍ فقط ويكون الإفطار جاهزًا.

بعد دقائق معدودة وضعت الطعام فوق المائدة، تناولوه مع بعضهم ثم استأذن بالانصراف، فأذن له الرجل بينما ودعته الفتاة بنظراتها الحنونة، خرج من الشقة ثم أغلق الباب خلفه وتسمّر فوق الدرج، كان يود أن يعود مرة أخرى، ذرفت عيناه دمعة ساخنة كمغترب يودع وطنه، وضع يده على قلبه يتحسسه فازدادت نبضاته، وبينما هو كذلك، كانت هي قد دلفت إلى غرفتها وأطلّت برأسها من النافذة، أرادت أن تودعه بعينيها كما

كانت تفعل في الزيارات السّالفة، انتظرت كثيرًا وجالت ببصرها أرجاء الطرق بحثًا عنه، بكت بشدة عندما خاب بصرها في رؤيته، ثم تنهدت بقهر وقالت:

-ليس معقولًا أن تذهب دون أن أحتضنك بعيني، ربما تأخرتُ في القدوم إلى هنا، لن أسامح نفسي.

وفيما كانت تحدث نفسها لمحته يخرج من البناية، فتهللت أساريرها ولوحت بيدها له، نظر إلى أعلى ثم صافحها بابتسامة خفيفة ومضى قدمًا في طريقه، ظلت تراقبه ببصرها حتى اختفى من أمامها، تنهدت بعمق وسارت ببطء نحو الغرفة التي قضى فيها ليلته، تحسست الفراش ثم انحنت بقامتها وقبلت موضع نومته، وارتفعت تنهداتها لتضع يدها فوق فمها كي تكبحها خشية أن يسمعها أبوها، فيغضب منها.

****

في نفس الوقت كان هو قد تجاوز الشارع الذي تقطن هي به ثم وقف والتفت إلى الخلف، امتد ببصره نحو نافذتها، لم يكن ليحظى برؤيتها فتخيلها وهي تقف أمام البناية والناس تمر

بينهما، فتارة يراها وأخرى تُحجب عنه رؤيتها، فابتسم في نفسه وقال وكأنه يحدثها هي:

"أنا وأنتِ كشجرتين، يمر بيننا الناس ولا يعلمون أن جذورنا تتعانق".

قال جملته ثم اعتدل في طريقه وسار نحو الطريق السريع، أشار لإحدى سيارات الأجرة المارة من أمامه ثم صعد، أسند رأسه إلى ظهر المقعد واستدعى ذكرياته فحضرته رغمًا عنها.

"لماذا تعشق هذا الطائر صديقي العزيز؟"

سؤال ألقاه على مسامعه (رفعت) فرد عليه مجيبًا:

-لأنه يشبهني كثيرًا، يغني كما أغني، هادئ مرح ولطيف.

نظر إليه صديقه بحنق وعلّق مستنكرًا:

-لا يشكر في نفسه إلا إبليس.

ليبتسم في وجهه ابتسامة صافية ويجيبه بجدية ممزوجة ببعض الدعابة:

-رحم الله امرئ عرف قدر نفسه، ما دمت لا أؤذي أحدًا فأنا لطيف، ما دامت العصبية لا تعرف طريقًا لعقلي فأنا هادئ يا صديقي، وما دمت أتحملك فأنا مرح حقًّا.

تذكر حواره ذاك مع صديقه، فضحك بصوت عالٍ حتى أن الأشخاص الذين كانوا يجاورونه في السيارة انتبهوا لضحكاته ونظروا إليه بدهشة، مما جعله يحدق في موضع قدميه من شدة الخجل بعد أن احمرت وجنتاه وكاد الدم أن يقفز منهما، ظل صامتًا حتى انقبض قلبه فجأة، رفع بصره ينظر للطريق فرأى السيارة قد أصبحت على مشارف قريته، علم حينها أن انقباض قلبه هذا سيعقبه أمر جلل؛ ربما حدث عند غيابه وربما سيحدث وقت وصوله، وربما يحدث له في القريب العاجل. استأذن السائق في الترجّل من العربة، ثم سار على قدميه في الطريق المؤدي إلى البقعة المحببة إلى قلبه.

تحرك خطًى ثقيلة كان يحمل خلالها حزنه على ظهره كمن يحمل جثة وينتظر الصباح بكامل يأسه، ودّ لو يخرج هذا الحزن من رأسه، أو من نافذة عينه، بل من الباب الذي لا يتوقف عن الصرير

كأنه مصاب بالهلع، أخذته قدماه إلى النهر، وقف على الضفة ونظر إليه بعينين دامعتين وبدأ يحدثه:

"لماذا أراكَ تمشي بقدمين في كوابيسي؟، وفجأة تتحول إلى ذئب جائع تريد أن تلتهمني!، أعرف أنك لم ولن تجيبني، ولكن كان لا بد أن أعكّر ماءك بتفاهاتي، عليك السلام".

أسئلة أخرجها من خزانة عقله وألقى بها في العراء، ثم نظر إلى السماء فرآها تميل إلى البكاء، غيوم كثيرة وسواد غطى أرجاءها كامرأة ترتدي عباءة سوداء ونقاب، لا يظهر منها سوى عينيها فقط، هما اللتان يظهران اللون الأزرق.

أخفض بصره ومعه رأسه وتحرك نحو القرية، كان ينظر بخزي في وجوه الناس الذين يصادفون طريقه، كفتاة جلبت لأهلها العار ولا تستطيع أن تضع وجهها في وجه أحد، لمح من بعيد اثنين يتشاجران، ركض نحوهما علّه يستطيع أن يفض اشتباكهما، وما إن وصل إلى هناك وتحقق من ملامحهما حتى علم أن أحدهما من شيعته والآخر من شيعة أعدائه، تسمر مكانه وهو يحدّق فيهما بذهول، بدأ الاثنان بالتراشق بالألفاظ فقال الذي من عِرقه:

- أنا ابن فلان أيها الحقير.

تباهى أحدهما بنسبه مما جعل الآخر يرد عليه بنفس اللهجة المماثلة:

- وأنا ابن فلان يا أحمق.

قهقه الأول بسخرية وهتف:

- فلان هذا كان خادمًا عند أبي.

لم يتحمل الثاني تلك الإهانة فكز على شفتيه غيظًا ومد يده داخل جيب عباءته وأخرج سكينًا حادًا ثم بحركة بهلوانية أصبح خلف الأول ومن ثم وضع السلاح فوق عنقه وسحبه دون رحمة، فتطاير الدم في الهواء كما يتطاير الغبار، تمايلت الضحية بجسدها عدة مرات ثم تهاوت على الأرض دون حركة، لم يصدق الآخر ما فعله، خرجت عيناه من محجريهما وهو يحدق به ثم ألقى السكين من يده وركض نحو منزله، أما طارق فقد جثا على ركبتيه من أثر الصدمة ثم صرخ قائلًا:

-يا ويلتا!، بحيرة من الدم تُغرق سكان الحي بقلب بارد، أين المفر؟

عقب جملته شعر بيد ضخمة تلتقطه من تلابيب قميصه ثم ترفعه لأعلى، طاوعها في النهوض حتى وقف على قدميه ثم استدار ليعرف صاحبها فإذا بأحد أعمامه يبصق في وجهه ويقول:

-أيها الحقير، جثوت على ركبتيك كما تفعل النساء عند ندب أرواحهن وتركت أخًا لك يموت غدرًا، أنت لا تستحق الحياة ولا تستحق أن تحمل اسم عائلتنا العريقة، اُغرب عن وجهي الآن ولي حديث مع والدك عمّا قريب.

فيضان دموع تدفق من عينيه، وبنظرة باكية رمق الرجل، ثم أخفض رأسه في خجل وتحرك في طريقه، رأى أُناسًا يهرولون نحو موقع الجريمة، ونساءً يصرخن ناعيات القتيل، وأخريات يبكين بشدة دون حديث، ورجال يتغامزون فيما بينهم، بينما أبناء عمومته خرجوا بأسلحتهم للمرة الثانية باحثين عن أحد يشفون غليلهم به، فلم يجدوا أمامهم سوى العقارات الصامدة في وجوههم، ليوجّهوا فوهة بنادقهم نحوها، ويطلقوا النيران عليها بكثافة، غير مبالين لما سيحدث من صَرَعٍ لأطفال العائلات الأخرى، التي لا ذنب لها فيما يحدث.

وبينما هم كذلك، كان هو قد وصل إلى منزله، وما إن دلفه حتى ارتمى في أحضان أمه، وعندما رآه أبوه بهذه الحالة، ناداه بأعلى صوته:

- طارق!

رفع رأسه التي كان قد دفنها في صدر أمه والتفت إليه وبصوت مختنق قال:

- نعم أبي.

رمقه الأب بنظرات حزن وقال:

-اتبعني، أريدك في أمر هام.

نهض من مكانه وتحرك خلف أبيه نحو غرفة المكتب، وما إن دلفها حتى أمره أبوه بغلق الباب خلفه، كي يتسنى لهما الحديث دون أن يسمعهما ثالث.

جلس على مقعده وهو ينظر لأبيه الذي تحدث بحكمة:

- عليك أن تعلم أن الحياة لا تتغير لأجل أحد، بل نحن نتغير ونسيّر الحياة بما يناسبنا، وإذا لم نتغير سيضحى واقعنا مريرًا

وربما سقيمًا لا ينتهي، منذ ولادتنا وحتى النهاية إن لم نمتلك رغبة التغيير، فإن اللا معنى أو اللا حياة كما وصفتها لك قبل سالف ستحيطنا وتملي علينا ظروفًا لا نحمل قوىً لمواجهتها.

أومأ الشاب برأسه تفهمًا لما قاله أبوه ثم نطق بحزن:

- يا أبتِ.

قاطعه الرجل قائلًا:

-قل لي يا صديقي، كما كنت تفعل في السابق.

فابتسم بحزن وعلّق على حديث والده قائلًا:

- عندما أفكر فيما يحدث، أستغرب من أنه حقيقة، هذا الصباح قلت لنفسي.

"هل أستيقظ يومًا ما وأرى أن كل ما حصل مجرد حلم، وللتوضيح، رغم أن ما يحدث الآن ليس لي دخل به إلا أن حياتي بسببه انقلبت رأسًا على عقب وأصبحت بائسة للغاية وثقيلة".

نظر الرجل إليه بعين الشفقة وقال:

- عليك أن تتعلم كيفية التعامل مع هذه الحقيقة، وأنا بدوري سأطلعك على قصة هاتين العائلتين منذ قديم الأزل وبداية الخلاف بينهما، لكن عليك أن تدرك أن بعد مماتي لا أحد سيعلمك هذا، الجواب تجده في داخلك كما يحدث دائمًا.

أسند الفتى رأسه على المقعد وأنصت بأذنيه لسرد والده قصة أجداده، بدأ الأب بالحديث عن جده الأكبر الذي أتى من بلاد الحجاز برفقته عددًا من الحيوانات من ضمنهم زوجين من النوق، وبقرة حلوب ومائة رأس من الماشية ثم وطأ بقدميه هذه البقعة من الأرض، وكان هذا قبل مائتي عام، كانت صحراء جرداء رغم قربها من نهر النيل، جلس الرجل ليستريح من عناء السفر فلمح بعينيه بعض الطيور التي تحلق في الهواء على مقربة منه، استشف حينها أن هناك مصدرًا للماء، ظل يراقب الطيور بعينيه وهو مستلقٍ بجسده أرضًا، أخذ قسطًا من الراحة ونهض، ثم تحرك في اتجاه الغرب بحثًا عن موضع الماء بعد أن غادرت الطيور موقعها، وبعد عدة أمتار وجد بئرًا هناك، رفع يديه إلى السماء ودعا ربه بأن تكون ماء هذه البئر صالحة للشراب، ثم عاد إلى موضعه، جلب من فوق جمله دلوًا ثم توجه به نحو البئر،

ألقى بدلوه وانتظر حتى امتلأ ثم جذبه إليه عن طريق الحبل المربوط به والذي كان قد صنعه سالفًا من نبات "القنب" لمتانة حبالها، ثم تذوق الماء فتهللت أساريره عندما استطعم عذوبتها، شرب منها حتى ارتوى ثم استدعى بهائمه بطريقته المعتادة، حيث عودهم على المشي تجاه صوت يصدره من فمه كالصفير، حضرته ماشيته وبدأ بجذب الماء لهم، ثم أنهكه التعب فاسترخى بجسده، بعد عدة ساعات حل الليل برفقة البرد، كان بردًا شديدًا للغاية مما جعله لا يستطيع تحمله فهم بالنهوض ودفن جسده وسط قطيع الأغنام كي يحظى بالدفء، شبك يدًا بأخرى ثم استرخى على ظهره وجعل من ذراعيه وسادة له، وعيناه مفتّحتان تحدقان في النجوم، خطر في باله فكرة فبدأ يحدث نفسه:

"عليَّ الآن أن أترك عصا الترحال، وأستغل هذه البئر وتلك الأرض في الزراعة، لا ينقصني الآن سوى بذور النباتات التي سأزرعها، ولكن من أين أحصل عليها وأنا لا أملك في جيبي درهمًا واحدًا"

وبينما كان يحدث نفسه، رغى جمله، فردت عليه ناقته برغاء مماثل، مما جعله يبتسم في نفسه ويقول:

-أتاني الجواب.

حينها فقط استراح عقله من التفكير، ثم غفي سويعات قليلة حتى أيقظه شعاع الشمس الذي سكن عينيه، فنهض بنشاط ومن ثم غسل وجهه من ماء قربته وعزم على الرحيل، تخلى عن عصاه حين غرسها في الأرض بجوار البئر ثم نظر إلى أعلى، راقب شعاع الشمس وحدد موقعه، أخفض بصره ثم رسم بقدميه دائرة حول عصاه، وتحرك باتجاه الجنوب، اتخذ في سيره خطًا مستقيمًا، وكلما تجاوز عدة خطوات حفر بقدمه الأرض، كان دائمًا في رحلاته يستلقي على ظهر راحلته، والقطيع خلفه، لكن هذه المرة كان الأمر مختلفًا حيث سار مترجلًا على قدميه وهو يسوق القطيع أمامه، وإن جارت إحداهن عن الطريق ركض حتى أعادها إلى خطه المستقيم.

ظلّ في رحلته قرابة يومين حتى وصل إلى إحدى المدن القديمة والتي كانت تسمى وقتها "آب تيح" رأس البقرة، نزل إلى السوق باع نصف قطيعه واشترى حملين من بذور الحنطة والشعير والذرة الصفراء، واحتفظ بالزوجين مع باقي القطيع، ثم عزم على الرحيل في نفس الاتجاه الذي أتى منه، في رحلته كان ينظر للشمس كل بضع ساعات وكذلك للأرض بحثًا عن علاماته التي

حفرها بقدميه، استغرق إيابًا نفس الوقت الذي قضاه في الذهاب حتى عثر على ضالته، مكث بجانب البئر بعض الوقت ثم نهض وبدأ بجمع الحصى، كوَّم كومتين حتى أن ارتفاعهما فاق طوله ثم ركب على ظهر جمله واتجه نحو النهر، بدأ يغرف من طميه ويضعه في راحلته حتى امتلأت، عاد إلى مقره وأفرغ حمل بعيره فوق الحصى ثم سكب الماء فوقهما، بدأ بعجنهما مع قليل من الرمل، نزع عصاه من الأرض ثم خط بها مربعًا أربعة أمتار في أربعٍ، ألقاها بجانبه وبدأ يحفر بيديه الخطوط حتى أصبحت عمق ذراع، جذب العجينة بيديه وألقاها في الحفر حتى امتلأت، بدأ يلتقط الأحجار من الرمال ويرصصها واحدة بجوار الأخرى فوقها ثالثة وبينهما مادة الحصى بالطمي، ظل يفعل هذا حتى بنى كوخًا يقيه برودة الليل وحر النهار، خرق بعصاه الجدار من جوانبه الأربعة فوق سطح الأرض حتى يَكُن للمكان ثغرات تُخرِج حرارة الشمس إن سخن الجدار، ثم توجه إلى قطيعه وسحب ناقته خلفه، كان يحمل فوق ظهرها أكوامًا من جريد النخل، أنزل حملها وافترش به سطح الكوخ ووضع فوقه أربعة أحجار ثقيلة كي لا تحركه الريح ثم دلف داخله، ساوى أرضه بخف نعله

وسكب فوقه ماءً كي يصبح صلبًا، أحضر حصيرًا وفرشه على الأرض ثم مدد جسده فراح في سبات عميق.

في الصباح التالي، استيقظ من نومه نشِطًا كعادته، ثم خرج من كوخه يستقبل الشمس بوجه سعيد وروح مرحة وعزيمة قوية، أخذ ما تبقى من سعف النخيل وبدأ يغرسه في الأرض، حتى أن البئر أصبحت في منتصف القطعة التي حوَّطها بالجريد، من حسن حظه أن البئر كان لها جداران مبنيان على جانبيها مما ساعده على أن يربط حباله بمُصلَّبة قد جلبها معه، ثم قام بربطها على رقبة بعيره، وأيضًا قام بربط حبل طويل من فوهتي "الغرب" ثم عاد إلى المصلبة مرة أخرى وربطه فيها بعد أن مرره عبر عجلة خشبية "المحالة" يخترقها عمود خشبي ثبته في الجدارين، حين أتم هذا العمل تنفس بارتياحية ثم بدأ بنثر البذور في الأرض بطريقة عشوائية وبعد أن انتهى منها، أنزل "الغرب" للبئر ثم ساق الزوجين في اتجاه البئر حتى وصل "الغرب" إلى قعره فامتلأ بالماء، ساق الحيوانين مرة أخرى لكن هذه المرة في الاتجاه الآخر بعيدًا عن البئر فارتفع "الغرب" إلى أعلى، حين رآه اقترب من السطح ضيق الفتحة السفلية له من خلال جذبه للحبل

المربوط بها كي لا يتسرب الماء من خلالها، وحين وصل "الغرب" إلى أعلى البئر، استدارت البعير نحو البئر، ففُتحت الفوهة السفلية للغرب وانسكب الماء في الأرض، لكنه لاحظ أن القطعة التي ينسكب فيها الماء تشربه ولا يصل الماء للأرض كلها، شعر حينها بالفشل، لكن هذا الشعور لم يلازمه كثيرًا حيث عزم على بناء حوض ينسكب الماء فيه وكذلك أفلاج يسير الماء عبرها لتسقي المزرعة، استغرق يومين حتى استطاع أن ينجز عمله.

اتخذ من هذا المكان مأوىً له في الليل، بينما في النهار كان يرعى غنمه على ضفاف النيل، مر أسبوع تبعه آخر، وبدأ الزرع ينبت في الأرض، ولشدة حرارة الجو.. كانت الأرض تحتاج أن تُروى كل يومين، فأصبح العمل شاقًّا عليه لذا قرر أن يستأجر شخصًا كي يساعده، فنزل إلى المدينة وهو يحدق في وجوه الناس حتى رأى شابًا قوي البنيان أحمر الوجه، عيناه واسعتان وسوادهما كالليل الحالك وكذلك شعره الطويل، ظل يحدق فيه لبعض الوقت حتى شعر بطمأنينة تجاهه دون أن يعرفه، اقترب منه ثم ألقى عليه السلام وعرض عليه العمل معه، لم يرفض الفتى لكن طلب

منه مالًا يتركه لزوجته وأخته اليتيمة، أعطاه حينها نعجتين وقال له:

-ثمنهما مقدمًا لك.

ابتهج الفتى وسأله عن اسمه واسم مزرعته، أجاب على الفور:

-اسمي حمد.

أفصح عن اسمه ثم صمت فأعاد الفتى نصف سؤاله:

-واسم مزرعتك؟

حك جانب رأسه في تفكير ثم أجاب:

- الحمادية.

ابتسم الفتى ثم قال:

- جعلك الله وإياها من المحمودين في الأرض، أما أنا فاسمي "طلحة".

بادله الرجل نفس الابتسامة ثم قال:

- هيا بنا قبل أن تغيب الشمس.

سارا معًا بعد أن قضى كل منهما حاجته حتى وصل إلى هناك، مكث "طلحة" مع "حمد" في كوخه الصغير، مرت أيام وليالٍ، وأصبحت الأرض جنة خضراء، وزاد عناءهما، وفي جلسة استراحة كانت وقت قيلولة، سأل الأول الثاني إن كان له زوجة أم لا؟ فأجابه الثاني بالنفي مما جعل الأول يصمت لوهلة ثم يقول مترددًا:

- اسمع يا عم، لدي أخت تفوق في جمالها جنتك، وأخلاقها يضرب بها المثل، وأنت رجلٌ خلوق وأمين، ولن أجد سكنًا آمنًا لأختي مثلك.

قال كلماته تلك، ثم راقب وجه الرجل الذي تحول إلى جمرة ملتهبة من شدة الخجل مثل كبد بهيمة انتهى الجزار من ذبحها، علم حينها أنه موافق لكن خجله يمنعه من الرد فبادره بقوله:

- على بركة الله، كما جعلنا هذه الصحراء جنة، سنجعلها جنتين بأبنائنا.

هدأ خجل حمد قليلًا ثم تساءل:

- ألست مشتاقًا لرؤية زوجك وأختك؟

ابتسم الآخر وأجاب:

-حقًا أشتاق لرؤيتهما..

فأومأ له برأسه عدة مرات دليلًا على تفهمه ثم قال:

- إذًا اذهب لهما، وسنتحدث في الأمر الذي عرضته عليَّ بعد عودتك..

كان طلحة أجرأ بكثير من حمد مما جعله يقول بثقة:

-بل سنذهب معًا ونعود بصحبتهما، ولكن علينا أن نبنيَ كوخًا آخر.

أراد حمد أن يكافئه فتحدث بسعادة:

- من الآن الأرض أصبحت مناصفةً بيني وبينك..

ذهب الاثنان معًا وعادا برفقة زوجتيهما، وبدآ يتوسعان في الزراعة، حتى أن بعض سكان المدينة أتوا لزيارتهما، واشتروا منهما أرضًا مجاورة لهما، وأصبحت الصحراء خضراء يافعة نافعة، وبعد مرور عدة سنوات، كان لحمد عائلة لا بأس بها من بنين وبنات وزوجة، وكذلك طلحة، وعمّ الخير عليهما، وأصبحا

من أعيان هذه البقعة من الأرض، فلديهما الكثير والكثير من الأراضي الزراعية وكذلك الماشية، ثم هرم كلاهما وجاء مندوب ربهما يسترد الأمانة، فمات "طلحة"، ولم يكد يمر عام على وفاته حتى لحق به الآخر، بينما كان للأول ابنًا يدعى "هاشم"، وكان يريد الزواج من "هند" ابنة "حمد"، لكن أخاها الأكبر "حماد" رفض هذا النسب لأنه كان يميل قلبه لابنة جيرانهم، وأخاها عرض عليه البدل فيما بينهما، فقد كان هو الأخر عاشقًا لها، لينصاع "حماد" لعرض "صابر" كي يسعد قلبه، لم يتحمل "هاشم" أن يراها زوجةً لغيره.. فقتل "حماد" حتى لا يقف في طريقه!!

ومن هنا كان أول خلاف بين هاتين العائلتين، وبعد مرور سنة كاملة، أخذ محمود بثأر أخيه من "هاشم" وهدأت الأمور بعد تدخل جيرانهم بالوساطة بينهما، وإقناعهما أنهما أصبحا متساويين في الدم، وتذكيرهما بصداقة أبويهما المتينة، وكذلك نسبهما، وكان للأرملتين دور هام في هذا الصلح..

****

كان يسمع قصة أجداده لأول مرة، كلما تعمق أبوه في التفاصيل كلما اشتاقت نفسه لمعرفة سبب الخلاف بينهما وحين انتهى الأب من سرد الحكاية وعرف سبب الخلاف الأول، وضع يده على قلبه ثم نظر لمحدثه بعينين باكيتين وقال:

_ إنها خيبة القريب يا أبتِ، الخيبة التي تطعن القلب وتمزق الروح، الخيبة التي تجعلك كمريض بات في سباتٍ عميق، جمعتهما امرأة وفرقتهما امرأة وصالحتهما امرأة.

قاطعه والده قائلًا:

- كلا، لا تقل هذا، جمعتهما امرأة أجل، صالحتهما امرأة نعم، لكن لم تفرقهما امرأة قط، بل فرقهما الجهل، الجهل وحده قادر على أن يهلك أممًا، يقتل أحلامًا، يخرق العلاقات الحميمية ليختلط سمه بدمها فيفسدها.

بينما كان الأب يتحدث كانت يمناه موضوعة فوق قلبه، ويسراه يضغط بها على جبينه فنظر طارق إلى الأولى وتحدث بحزن:

- هون عليك يا أبي، فيدك الحارة التي وضعتها على مكان الألم البارد لم تفعل شيئًا سوى أنها قامت بحرقه، أحرقته بشدة حتى

إنه أصبح رمادًا للحد الذي لم يعد يملك نفسه على الصمود فسقط ثم طار.

كان يتحدث عن الألم الذي بداخله، ذاكَ الذي مزق قلبه لا قلب أبيه، وطال الحديث بينهما، حتى أنهما نسيا الكارثة التي حدثت منذ قليل أمام ناظري طارق فمنذ نشأة تلك البلدة، لا يكاد يمر عامان، إلا ويقع فرد من أفراد هاتين العائلتين قتيلًا.

- ربما أن أحد الأجداد كانت نيته سيئة، وربما كلاهما، لا أعرف، لكن هناك علاقة مشبوهة خفية عن الجميع، لعنتها أصابت دم العائلتين كمرض عضال يجري في عروقهم مجرى الدم، وحبوب التهدئة التي يتجرعها أحدهم هي إراقة دم بريء.

كلمات مبهمة ضربت رأسه بقوة، فنشأ إثرها صداع مزمن وكأنها مطرقة نجار أعور غاضب من زوجته، فبدلًا من أن يدق المسامير في لوح خشبي، دقها بعنف في رأسه كي يشفي غليله، مرت سويعات قليلة، حتى انتبه الأب لدموع حبيبه وهي تسيل على وجنتيه بغزارة، فنهض عن مقعده واقترب منه، وعندما لمحه الفتى نهض هو الآخر، ثم نظر أسفل قدميه خجلًا من أبيه الذي احتضنه بقوة، ثم ضرب ظهره بكلتا يديه قائلًا بحزم:

- الرجال لا يبكون، وإن بكوا كان بكاؤهم خشية من الله فقط، جفف دموعك، واحترس من الانهيار والغضب، فكلاهما يلغي العقل ويدفعك إلى التهلكة.

تمالك نفسه أمام والده، وجفف دموعه براحته اليمنى، بينما قلبه لا زال يبكي على حياة كان يظنها أرقى بكثير من حياة الحيوانات المتوحشة في الغابة، كان يظن أن البشر سيُكرِمون بعضهم البعض، كما كرّمهم الله على سائر مخلوقاته، لكنه صُدم من واقع لم يكن يتوقعه، أيقن أن الحيوانات أرقى وأنضج من إنسان ترك عقله نائمًا على فراشه، واصطحب سلاحه، وخرج يبحث عن شربة دم يسقي بها أرض خصبة، فقط ليرضي غروره، فلا يفيد الدم تربة أنهكتها الذنوب، ولا ينفع الندم شخصًا أبكى الدروب على فقدان حبيبه.

كيف حال أم فقدت فلذة كبدها دون إنذار؟، أظنها أصبحت جثة تمشي على قدمين!، لا، لا، الجثث لا تتألم بعد خروج الروح منها، بل أظنها روح ممزقة وقلب تلف وتينه.

سأل نفسه عن حال من فقدوا ذويهم ولا زالت دموعه تحرقه من الداخل، كأرض ثابتة تحمل في أحشاءها براكين تفور، حتى

أخرجه من شروده صوت أخيه الصغير ابن العشرين ربيعًا وهو يقول متعصبًا:

- لماذا لا نحمل نحن أيضًا السلاح ونقاتل؟

نظر إليه بدهشة ثم وجه نظراته لأبيه الذي اتسعت عيناه في ذهول عقب سؤال الصغير، لم ينتظر طارق إجابة والده، بل بادر هو بالحديث قائلًا بهدوء بعد أن ربت على كتف الصغير:

- فارس، هل تستطيع أن تحمل هذا الكرسي بين يديك؟

حدقه الفتى بغيظ ثم أجاب:

- لست طفلًا، بالتأكيد أستطيع حمله دون عناء.

ابتسم ثم أكمل حديثه بعد أن تخلى عن موضعه وتراجع خطوتين للوراء:

- إذًا احمله واضربني به.

احتضن الأب رأسه بكفيه ثم تابع في صمت بينما انكمشت قسمات وجه الصغير اشمئزازًا وقال:

- أتهزأ بي؟ سألت لماذا لا نحمل السلاح ونقاتل؟

ضرب الأب المكتب بقبضة يده وقال بصوت مرتفع يحمل التوبيخ:

- تأدب يا ولد في حديثك مع أخيك الأكبر واعقل حديثه.

طأطأ الفتى رأسه خجلًا ثم قال معتذرًا:

- آسف؛ لكن.

قاطعه طارق قائلًا بهدوء:

- لو كان لك عندي حاجة وامتنعت عن ردها إليك، ماذا ستفعل؟

رد الصبي دون تفكير:

- سآخذها بالقوة.

فأضاف سؤالًا آخر:

- أين تكمن القوة؟

حينها عجز عن الإجابة ثم صمت مما جعل الأول يستأنف حديثه قائلًا:

- القوة تكمن في العقل لا في الجسد، لو نفذت ما أمرتك به وضربتني بالكرسي من سيتأثر؟ أنا، أم الكرسي، أم أنت؟

أجاب الغلام بلهفة:

- بالطبع أنت.

ابتسم وتابع أسئلته:

- ولمَ لا تتأثر الأداة التي ضربتني بها؟

- لأنها...

كلمة واحدة قالها بتلعثم ثم صمت فأضاف:

- لأنها جماد، لا عقل، لا روح.

ميزنا الله عن سائر خلقه بالعقل، منحه لنا لنفكر به، لا لنستبدله بأداة نحملها في أيدينا.

فرك الصغير أصابعه وهو يقول:

ولكنني سمعت الإمام يقول في خطبة الجمعة أن الله سبحانه وتعالى قال:

(وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)

وعلمت أن القصاص هو قتل القاتل.

استطرد طارق يقول بهدوئه المعتاد:

- نعم، قتل القاتل ولكن هل حقًا قتلوا القاتل ؟، لا ولن يقتلوه وهذا إن دل يدل عن نقصان عقولهم، لا شيء يميزهم عن الكرسي هذا.

صفق الأب له بعينيه ثم قال:

- اذهب لتستريح، فغدًا لابد أن تكون معهم في الجنازة.

التفت إليه الشاب وقد ظهرت في عينيه علامات الاستفهام، وكأنه يود سؤاله عن ذهابه هو أيضًا فاستشف الأب من نظراته ما لا يستطيع قوله، فأراد أن يريح قلبه قبل عينيه فأردف:

- إن سألك أحدهم عني فقل أني طريح الفراش، فأنت تعلم أني لا أحبذ سماع الخطب والشعارات التي تطلق كالقذائف على مسامع الحاضرين بعد دفن المتوفى، وأني لا أستطيع أن أرد هذا

السخط، إنها عادات وتقاليد تربينا عليها رغم إنها تخالف شرعنا وديننا.

زفر الشاب في ضيق وقد أظلمت نظراته من جديد ثم استطرد متشدقًا بسخرية:

-"عاهات وتجاعيد".

التزم الأب الصمت، ثم هرب بعينيه بعيدًا في محاولة منه للبحث عن نظاراته، ولمّا لم يَحز طارق جوابًا، أومأ برأسه وتحرك بخطواته نحو غرفته، فاستوقفته أمه وأمسكت بكلتا يديها كتفيه وهزتهما بقوة وقالت والدموع في عينيها:

- احذر يا ولدي الانجراف في هذا الهلاك، أخاف عليك أكثر من نفسي، ولولا أباك لماَ تركتك تخرج من البيت أبدًا.

ابتسم في وجهها ثم شب على قدميه وقبّل جبينها وهو يقول:

- اطمئني يا أماه، فولدك لديه عقل يعرف كيف يفرق بين العصبية والحكمة.

****

دلف إلى الغرفة وأغلق الباب خلفه، ثم ألقى بجسده فوق الفراش، لقد أراد أن ينام، ولكن كيف يغمض له جفنًا ومشهد القتل حاضرًا أمام عينيه؟، بعد أن وضع رأسه على الوسادة هبَّ جالسًا ثم أمسك رأسه وضغط عليها بشدة، فالصداع كاد أن يمزقها، لتتضامن معه ذكرياته مع صديقه وكذلك الحادثة التي حدثت اليوم، كل شيء له علاقة بهذه القضية بدأ يعلن عن نفسه أمامه، ظل يقاوم الصداع وكذلك يحاول أن يتذكر فاتنته كي يهرب من كوابيس اليقظة التي حلت عليه ضيفًا لليلته، لكن محاولاته باءت جميعها بالفشل، حتى سافر به خياله إلى أنه أصبح مسؤولًا عن هذه الدولة العريقة، وكان أول قراره حقن الدماء بين العائلتين، والبحث عن كل خلاف نشب بين عائلات الدولة جميعها، واستطاع أن يفض هذه الخلافات دون إراقة الدماء وأصبحت الجمهورية في رخاء وازدهار.

حينها ابتسم في نفسه وفرّ الصداع هاربًا من رأسه، وكذلك الكوابيس علمت أنها ضيفًا غير مرغوبًا فيه فرحلت دون استئذان، هنا حضره النوم فاتحًا ذراعيه بسعادة، كجندي غاب

عن زوجته سنوات وسنوات، ثم عاد وعانقها بقوة حتى كادت أضلاعهما أن تختلطا معًا.

كل شيء يولد مع الفجر الأقدار، الأمل، النجاح، الطموح، قصة الأمس انتهت، وقصة اليوم بدأت، أعلن الصبح عن نفسه، فاستيقظ النائم كعادته بنشاط، دلف إلى حمامه ثم خرج وصلى ركعتي الصبح، كانت الأم قد جهّزت لهم طعام الإفطار، ونادت على الأب الذي لا زال ماكثًا على مصحفه في غرفة مكتبه بعد أن أدى فريضة صلاة الفجر، ليدلف الأخير خارج غرفته مبتسمًا كعادته، ثم جلس على مائدة الطعام وحوله أبنائه وزوجته، جلست الأم قبالة الأب وكذلك الولدين، وهناك بنت وحيدة صغيرة تجلس فوق ركبتي والدها، تناول الجميع طعامهم بسعادة، ثم أشار الأب برأسه له وقد علم ما يود قوله دون حديث، فوجّه كلماته لأخيه قائلًا بهدوء:

- هيا بنا يا فارس كي نلحق الجنازة..

نظر الصغير لأبيه فأومأ له برأسه دليلًا على موافقته، بينما الأم وضعت يدٍ على رأسها والأخرى فوق قلبها، كم كانت تود أن

تمنعهما من الذهاب، فكلمات الاعتراض تتقافز فوق شفتيها لكنها كبحتها متمتمة بداخلها:

- اصمت يا لساني، وإلا قطعتك!

بصعوبة منعت الحديث الذي يكاد يقفز خارج شفتيها، ولم تطاوع قلبها وعقلها اللذين كانا يرفضان ذهاب ولديها إلى هذه الجنازة بل يرفضان خروجهما مطلقًا من البيت في ظل هذه الظروف المتأزمة، كبحت كل هذا احترامًا لزوجها الذي لم تخالفه في رأي قط منذ زواجهما الذي تجاوز الثلاثين عامًا.

****

خرج الشابان من منزلهما متوجهين إلى المقابر، كان الكبير يضم صغيره تحت ذراعه ويسير به، لكن وجهه بدا متجهمًا على غير عادته، تصاعد رنين هاتفه عدة مرات وهو في طريقه، لكنه لم ينتبه، حتى أنه لم يرفع عينيه إلى السماء بحثًا عن "درغله" كما كان يفعل كل صباح ومساء، لقد أصبح الأمر معقدًا، وعقله لم يعد يعمل كسابق عهده، فكل شيء قد تبدل حوله ومعه. قطع الطريق برفقة أخيه حتى وصل إلى المقابر، استوقفته لوحة

منقوشة على أحد القبور تحمل اسم الشيخ "عدنان"، اقترب منها ثم جلس أمامها وهو لا زال يتأمل الاسم، تذكر حين اعتلى الشيخ المنبر وبدأ يخطب في الناس خطبته الشهيرة التي لم ينسها أحد من سكان تلك القرية، كانت خطبته الأخيرة أيضًا، حيث افتتحها بالدموع وهذه لم تكن عادته، كان رجلًا أربعينيًا، طويل القامة كثيف اللحية، حسن السريرة والهيئة .

اعتلى الشيخ المنبر وظل يبكي قرابة الربع ساعة، الجميع كان مذهولًا:

"لماذا يبكي الرجل الصالح!".

بعد أن كبح دموعه ومسح بمنديله ما سال منها قال بصوت أجش:

- أيها الرجال إني والله لحزين جدًا، بل ومقهور، تعلمون عني الكثير وأعلم عنكم أيضًا ما لا تعلمون، تعلمون أني أفسر الرؤى، وكم كانت سعادتي كلما فسرت رؤيا لأحدكم، لكني والله ما سعدت بتفسير رؤياكم مطلقًا، وما تمنيت أن أراها، وددت لو لم أكن أفقه في تأويل الأحلام، وايم الله أود أيضًا أن أكون مخطئًا وأن كل ما

فسرته لكم يصيبه الخطأ، يا معشر الرجال، إخواني في الله وأحبائي وأبنائي وتلامذتي، الهلاك يقترب منكم فاحذروا الفتنة، فهي نائمة وملعون من أيقظها، سيموت منكم الكثير بسبب أو بغير سبب، فإن رأيتم الشر يفتح أبوابه فأغلقوها فلن يجلب عليكم إلا الخراب .

أبناء بلدتي لقد رأيت نارًا عظيمة نشبت من ضواحي البلدة القبلية، وزحفت حتى وصلت إلى هنا، نارًا التهمت كل شيء، وزادت في الاشتعال بأفعالكم، لم يحزنني اشتعال النار مثلما أحزنني الذين كانوا ينفثون فيها أنفاسهم الخبيثة، فاتقوا الله في أنفسكم ولا تجعلوا الشيطان سلطانًا عليكم.

بكت السماء - حين انتهى الفتى من تذكر مشهد الخطبة - أمطارًا غزيرة، ورياح هبت على غير موعدها، تناقضت الطبيعة، المياه تهطل بكثافة، والتراب يطير بفعل الرياح، متضادتان، تبلل وجها الشابين وملابسهما، وكذلك قلب الكبير فيهما، بكى هو أيضا بشدة، فالألم يسكن داخله، كل من أراده في حياته رحل وتركه، صديقه وشيخه، عفويته وحلمه، لم يبق له إلا القليل ممن يحبهم، الموت سن أسنانه وحاوطته، كأنه عدو تملك منه

يستأصل أعضاؤه عضوًا تلو آخر قبل أن يقبض روحه، وهو مكبل الفكر، مشلول الحركة، مغلوب على أمره.

لا زال يجلس أمام القبر يتأمل ملامح صاحبه وهو يحث الناس على قتل الشر قبل أن يقتلهم، جلس يستأنس بمعلمه الذي رحل جسده ولا زالت روحه تحفه، تطمئنه وتواسيه وتبث في نفسه الحكمة والصبر والهدوء عند كل مصيبة تحدث له أو أمام ناظريه، أما أخاه فكان واقفًا بجواره ينظر إليه بدهشة ويقول في نفسه:

- لقد جن أخي، ماذا لو قتلوني، هل سيأخذ بثأري، هل سيحمل السلاح ويقتل من قتلني، لا أظن هذا، هو لا يحب الدم ولا السلاح، هو يحب نفسه فقط، أكثر مني، وأبي كذلك، هم جبناء يهابون الأسلحة وأنا لست مثلهم، سيأتي يومًا يقدسون فيه ما سأفعله بأحفاد خادم جدي.

ظل يحدث نفسه حتى لمح من بعيد موكب الجنازة يقترب فوكز أخاه في ذراعه قائلًا بامتعاض:

-انهض لقد حضروا.

نهض الدرغل ثم وقف يشاهد الموكب وهو يتجه نحو مقابرهم، وحين اقترب من مدافنهم، تحرك برفقة أخيه نحوهم، وصل إلى هناك ووجّه عينيه نحو عربة الإسعاف، وعندما فتحوا بابها وأخرجوا الجثة منها، ذرفت عيناه دمًا، وقد تذكر حين كان القتيل يقف على قدميه يتشاجر مع غريمه، يسب ويلعن ويتراشق الاثنان بالألفاظ، أشاح ببصره بعيدًا عنه وقال في نفسه:

"رحلت وما نفعتك ألفاظك، وما تركتنا هادئًا البال، أوقدت نارًا أخرى بجهلك، لا أعرف من سيخمدها ولا أعرف مصيرك الآن كيف سيكون!، هل ستحترق في النار أم ستكون مع الصديقين والشهداء والنبيين، لا أظن هذا، وأنفاسك الأخيرة خرجت مع سبابك لدينك، لك من الله ما تستحق.

خرجت تساؤلاته من مخيلته على هيئة دموع سقطت من عينيه، وحين انتهى منها بإجابة ترضيه التزم الصمت، وظل يراقب فقط دفن الميت، وبعد الانتهاء من مراسم الدفن، زفر في ضيق ثم أخرج منديلًا من جيبه مزقه قطعتين أراد أن يضعهما في أذنيه كي يمنعهما من سماع ما يؤذي قلبه، لكنه لم يستطع فعل هذا، ألقى القطعتين أرضًا ونظر لكبيرهم وهو يتحدث، كان

يتعجب من هيئته الوقورة، غرة تزين جبينه وعمامة يلفها فوق رأسه كما يفعل المتقين ولحية كثيفة سوداء تزينها بعض الشعيرات البيضاء، وجلباب أبيض قصير يظهر من أسفله سروال بنفس اللون، هكذا كانت هيئته التي يراها الناس جميعًا إلا طارق، فقد رآه كإبليس عندما وصفه رسولنا الكريم في حديثه الشريف، الكلمات النائية تخرج من شفتيه كعادته، والتحريض على القتل كان منهجه الذي اتخذه، وقف يراقب الجالسين أمام المقبرة لعله يرى أحدًا منهم ينفر من الحديث، لكن هيهات هيهات، كلهم يطأطئون رؤوسهم تصديقًا لما يقول حتى بالغ الرجل في القول حين أردف:

- نحن أصحاب هذه الأرض، جدنا وهب لخادمه المطيع نصفها ولكن جاء اليوم الذي لا بد أن نرد فيه حقوقنا، سنعود الآن إلى بلدتنا حاملين السلاح، سنهجم على ديارهم نقتل منهم من نجده ونخرج نسائهم وأولادهم من قريتنا ضعفاء أذلاء.

لم يستطع أن يصمت أكثر من ذلك صاح صيحة مرعبة موجهًا حديثه للرجل:

- كفاك يا عمي، بدلًا من هذا الهراء دلنا على الطريقة التي نسد بها هذا الثقب، أخبرنا كيف نغلق أبواب الشر هذه.

حدقه الرجل باحتقار ثم أشار له بالاقتراب فسار نحوه حتى وقف أمامه، تفحصه الرجل جيدًا ثم أشار للفتية الجالسين خلف طارق فنهضوا جميعًا ثم اقتربوا منه فقال بحزم:

- سدّوا هذا الباب القبيح بالتراب، كي لا يتفوه مرة أخرى، وتخرج منه رائحة نتنة تمغص علينا حياتنا.

أمسك الفتية به بينما قبض أحدهم قبضة من الثرى ونبذها داخل فمه، ثم بدؤوا يغيرون مواضعهم حتى أن جميعهم شارك في حشو فمه بالتراب المبلل، الجمع الغفير لم يتحرك، كأنهم تماثيل عدا أخيه الصغير، الذي ركض نحوهم وهو يبكي ويصرخ:

- اتركوا أخي، اتركوه..

حاول أن ينتزع السلاح من أحدهم لكن جسده النحيف وقوته الضعيفة ردعاه فلم يستطع، ودّ لو كان يملكه هو ليقضي عليهم جميعًا، وحين فشلت محاولته في اقتناص السلاح، أمسك ببعض الحجارة وقذفهم بها حتى تركوه، انسحب الجميع من الساحة

وبقي هو جالسًا على ركبتيه محتضنًا رأسه بكلتا يديه وأخاه يجلس أمامه ينفض الثرى عن فمه ويبكي حتى نظر إليه بعينيه الدامعة وقال:

- لا تبكِ، ربك رحيم، والله إن طعم الثرى في فمي كان ألذ من طعم الشهد ذاته.

كان يتخيل حبيبته وهى تضع الطعام في فمه بيدها ثم تمضغه معه بشفتيها، الثرى في فمه كان ألذ من لحم الغزال الذي يطهوه طباخ فقط من أجل المال، تلذذ بما وضعوه لأنه استحضر من إذا حضرت فرت الأوجاع هاربة من جسده، وانتحر اليأس أمام عينيه، وأعلن الحزن تخليه عن منصبه، كل منا له نصفه الآخر، بدونه لا طعم للحياة وإن كنا من ساكني القصور، منزهين عن الفقر، كلما شعر بالضيق خرجت زوجته من وكر قلبه وتربعت داخل ذاكرته ونفضت عنه غبار الألم وغسلته بصفاء قلبها ومشاعرها الفياضة، لم يصدق الصغير ما قاله بل أشفق عليه وتابع حديثه السالف مع نفسه قائلًا بحزن:

-والله إنك لمجنون كما قلت، والله لقد ألصقت بنا العار وأنا أظن أنك أصبحت في نظر العائلة قتيلًا لا دية له ولا قصاص.

الأفواه صامتة لكن العقول تتحدث، عقل الصغير قال ما سبق، وعقل الدرغل وجوارحه وقلبه كانوا في عالم آخر، يبحث بهم مع عينيه عن طائره في السماء، ثورة الغضب التي أعلنتها السماء منذ قليل انتهت والرياح سكنت، الغبار استكان فوق سطح الأرض وبعد أن أخمدت الأمطار شعلة نيرانه، رفع بصره للسماء يبحث عن نفسه، كان دائمًا يتمنى أن يكون طائرًا لا إنسانًا، فعشقه للطيور فاق عشق قيس لليلى، وعنتر لعبلة، وكل الأساطير التي حكت قصص الحب التاريخية، ظل البصر عالقًا في السماء والقلب يقول بألم:

أن تكون إنسانًا، يعني ذلك أن تكون مشاعرك تحت طي النسيان، أن تنتظر الزائرين آناء الليل وأطراف النهار.

أن تكون إنسانًا عليك أن تحدّق في وجوه المارة وتتمعن في ملامحهم جيدًا، لعلّ الوجه الذي تحبه يكون من بينهم، أن تكون إنسانًا يعني ذلك أن يخيم عليك الليل وأنت الوحيد الحاضر لاستقباله، أن ترمي عليك السماء بمدامعها فتبتل أحجارك بقطراتها دون اعتذار منها، وأنت تقف صامتًا تأمل منها المزيد.

أن تكون إنسانًا فإن ذلك يعني أن تفاصيلك موصوفة بدقةٍ، الصغيرة منها والكبيرة ولكن لا أحد يلتفت إليكَ أو يبقى لصيقًا بك أكثر من ظلك، غير المشردين والتائهين ..

لكن إن كنت طائرًا فهذا يعني أنك حر طليق، لست وحدك لأنّك تحلق في السماء بصحبة بني جنسك، تتجاوزون المسافات وتقطعون الأميال بسعادة، لا يحيط الخطر طائرًا منكم دون البقية.

ليتني كنت طائرًا، ما كنت أبالي إن قتلت أنا أو أحد من سربي..

دموع قلبه أحرقت وتينه بينما مياه عينيه اختفت أمام أخيه، في حين بدأ هاتفه يعلن عن نفسه، موسيقاه المفضلة بدأت تدق أجراس قلبه، يسمعها به بينما أذناه عجزتا عن سماعه وكذلك يديه لم يحركهما ليخرج هاتفه، صوت الطائر القمري المسجل ينقر الحنين داخل فؤاده يريده أن يصغى لمحبوبته، لكن الأمر جلل، فاق الحد والتصور.

تغيرت الموسيقى وعاد صوت هاتفه المزعج، هناك آخر يتصل، كان أباه الذي وصله نبأ ما حدث معه وأراد الاطمئنان عليه، لكنه

لم يطلق إجابة، ورغم تغير نغمات الهاتف بين الحين والفينة إلا إنه ظلّ ملازمًا ملكوته فانتقلت المكالمات إلى فارس عبر هاتفه، رفع الصغير الهاتف نحو أذنه بعد أن ضغط على زر الاستقبال قائلًا بصوت حزين مسموم:

-نعم أبي..

انقبض قلب الرجل حين أحس نبراته القاتمة ثم قال متسائلًا:

-ما الذي حدث؟، أخبرني بني.

أجاب الفتى بصوته المخنوق ونبرته التي تحمل الملامة قبل احترام محدثه:

-لا شيء، سوى أننا من اليوم لا ثأر لنا ولا قصاص، لقد دسَّ ابنك رأسنا جميعًا في التراب.

قاطعه الأب قائلًا بتلعثم بعد أن مزقت كلمات الصغير أحباله الصوتية:

أين أخوك.

صمت الفتى ولم يجبه فأعاد الأب سؤاله، لكن هذه المرة امتزج صوته بنواح زوجته التي بكت وصرخت حين عرفت ما فعلوه مع فلذة كبدها ولا زالت تبكي بشدة، حتى أن صوت بكائها كان أعلى من صوت الرجل وهو يتحدث عبر الهاتف، بينما اشمأز الصبي من صوتهما وأجاب بتهكم:

كفاكما نواحًا، تبكون على شخص مجذوب، وضعوا التراب في فمه كي يقتلوا نخوته وهو يقول إنه كان لذيذًا، إنه لا يشعر بما يدور حوله ولا يهتم لِمَ حدث ولا يفقه شيئًا.

شهقة خرجت تلو أخرى، مزقتا أحشاء الأب مع خروجهما حتى أنه لم يستطع حمل الهاتف أكثر من ذلك في يده فدفعه لزوجته التي التقطته بلهفة وقالت بصراخ:

-أين أخوك يا فارس؟

تهجم وجه الصغير ورد على والدته بغضب:

هو بجواري، لا تخافي عليه ولا تحزني لأجله فهو لا يحزن على نفسه.

وبينما كان الصغير يتحدث عبر الهاتف كان طارق هائم في ملكوته، تخلى عن جسده وحلق في السماء بروحه مصطحبًا خياله معه، وصل إلى القرية ثم جلس مع كبار هاتين العائلتين وتوصل إلى حل يرضي الطرفين لينتهي الخلاف بينهما للأبد ثم عاد إلى جسده مرة أخرى فارتسمت الابتسامة على وجهه في حين كان الأخ قد سئم الحديث مع والدته فنظر إليه كي يعطيه الهاتف لتطمئن والدته وعندما رآه يضحك غلا الدم في عروقه وقال بعصبية:

-والله إنك لمجنون، خذ الهاتف طمئن من تكاد تموت قلقًا عليك.

لا زالت الابتسامة تطغى على ملامحه لم تتلاشَ وعيناه معلقتان في السماء، تخيل نفسه شهيدًا والسماء تمطر ورودًا قبل أن يُشيَّع، الأم تصرخ وتبكي وهو يبتسم ويقول بهدوئه المعتاد:

-أماه لا تبكي، معية الله تحفظني.

خطف الأب الهاتف من زوجته بعد أن لملم شتات روحه الممزقة وقال آمرًا:

-أنتظرك بالمنزل أنت وأخاك.

لم يعلق على حديث والده بل أغلق الخط وأعطى الهاتف لأخيه ثم نهض عن جلسته وقال له:

-هيا بنا لنعود.

عقب جملته رن هاتفه مرة أخرى فأخرجه من جيبه ثم قال مستقبلًا المكالمة:

-فاتن أنا بخير، لكن لا أستطيع التحدث الآن.

حاولت أن تعلق على حديثه لكنه لم يعطِ لها فرصة بل أنهى المكالمة ووضع الهاتف في جيبه وتحرك برفقة أخيه نحو الطريق السريع، في هذه اللحظة عاد إليه عقله، ولم يعد بإمكانه الهروب من واقعه أكثر من ذلك، الدموع تسربت أيضًا من عينيه وبللت وجنتيه، لم يستطع أن يواريها عن أخيه أكثر من ذلك، بدت خطواته بطيئة، يجر قدمًا خلف أخرى، المياه تسقط من عينيه كالشلال، لذا أسرع من تحركاته، بينما أخاه ظلّ يراقبه في صمت وهو يسير بجانبه يفكر فيما حدث يبحث عن مخرج للمأزق الذي وُضع فيه اليوم، رغم صغر سنه إلا أن فكره يشبه فكر كبير

عائلتهم: -الناس سيقولون، الناس سيمقتوننا، سيقولون أن ابن فلان وضع رأس أبيه وإخوته في التراب، أنه خائف وجبان .

ساقه عقله إلى هذا فحدث به نفسه ثم بين لحظة وأخرى شرع ينظر لأخيه بغيظ، ود لو قتله أعدائه وحمل سلاحًا وخرج ليأخذ بثأره، كان هذا أفضل له مما فعله به بنو عمومته، نظراته كانت محتقنة للغاية، يزفر في ضيق وهو يفرك أصابعه، والآخر بجواره يسير وهو يبكي، الآن فقط شعر بالإهانة، استفاق من غفلته، رفع رأسه إلى السماء وصرخ بأعلى صوته:

-رحمتك يا رب.

انتفض الصغير عقب صرخته ثم نظر إليه باشمئزاز وتحرك بخطوات سريعة كي يسبقه إلى المنزل، فما عاد يحتمل السير بجواره، كل منهما يفكر بطريقته، هذا يريد حمل السلاح وإن كان على حساب قتل أخيه، وهذا يريد حقن الدماء وإن كانت روحه الثمن، اختلف التفكير والضحية واحدة، تخلف طارق عن أخيه بضع أمتار فصرخ فيه قائلًا بتهكم بعد أن أستوقف سيارة:

-أسرع فكما قلت أباك ينتظرنا بالمنزل.

لم يعلق على حديثه وبعد دقائق معدودة ترجل الاثنان عن السيارة وتوجها بخطواتهما نحو البلدة، وما إن وطأت قدماهما أرض القرية حتى رمقهما الناس بنظرات غريبة، نظرة شامت وأخرى تعلن عن حزن صاحبها وثالثة دامعة تُعرب عن أسفها لمعاناتهما ورابعة احتقارًا، كان الصغير يقابل النظرات بعينين وقحتين، يسبّ ويلعن الجميع وعلى رأسهم أباه وأخاه، أما الدرغل فكانت عيناه تساند قدميه في السير، لم يرفعهما عن الأرض بل ظل هكذا حتى وصل إلى منزله وعندما لمحته والدته هرولت نحوه واحتضنته وهى تبكي بشدة، لم يستطع أن يتمالك نفسه فبكى هو الأخر بين أحضانها مما دفع الأب لالتزام الصمت بضع دقائق، في حين اشمأز الفارس من الجميع ودلف إلى الحمام دون حديث، وبينما هو داخله سمع صوت أبيه يقول :

-لا تحزن لقد فعلت الصواب بني.

خبط رأسه بالحائط من شدة الغضب حيث استشف أن الجملة قيلت لأخيه وأن الأب موافق على فعله فقال في نفسه:

-يا لك من أب أحمق، كنت أظن أنك ستوبخه على ما فعله وتسحب منه حريته المطلقة التي منحتها إياه، لكنني أخطأت حين ظننت هذا.

وأطبق شفتيه على الحديث حين سمع أخاه يقول:

_لا يا أبتاه لم أفعل الصواب بل أخطأت في حق نفسي فلا يتحدث إنسان مع الحيوانات ويلوم نفسه بعد ذلك لأنهم لم يفقهوا حديثه.
ليس هذا فحسب، لقد تحدث إليهم ومنحهم الأمان رغم أنه يعلم أن من بينهم الكثير من الذئاب، وحين انتهى من حديثه اقترب منهم دون حذر فأكل ذئب منهم رأس كرامته وترك للبقية الجسد فتلذذوا بلحمه النيئ دون خجل، لم يتركوا للثعالب شيئًا رغم أنهم دائمًا ما يتفقون على تقسيم الضحايا فيما بينهم، لكن هذه المرة لم تخن الثعالب كما كانوا يفعلون من قبل.

تحرك الأب نحو الردهة عقب جملته ثم جلس على مقعده المفضل وأشار له بالجلوس، ما كان سيره إلا محاولة هروب من حديث ولده رغم أنه يعلم علم اليقين أن كلامه صحيحًا، وهذا ما دفعه أن يلوم نفسه ويتحدث إليها قائلًا:

-كان لابد أن تقول له لا تذهب فأنت تعلم أنه يشبهك في كل شيء، حتى الحديث والعقيدة، ولكنك نسيت فارق السن بينكما، فأنت تستطيع الصمت عندما يغضبك أمر، لكنه لا يستطيع، فهكذا هم الشباب يثورون حين لا يعجبهم أمر ما.

أخرجه من شروده صوت ولده عندما قال:

-لا أستطيع العيش في هذه البلد بعد الآن فأذن لي أن أسافر.

جملة قالها مزقت قلب والده بينما والدته حين سمعت لم تستطع الصمود، تهاوت بجسدها أرضًا فصرخت ابنتها بكنيتها:

_ "أمي"

بينما رب الأسرة حاول أن ينهض عن مقعده ليطمئن عليها لكن قدماه أبتا أن تحملاه، في حين فز هو عن مقعده مفزوعًا وانحنى بقامته ثم حملها وتوجه بها نحو غرفتها، وضعها على فراشها برفق وبدأ يقبل جبينها ويبكي وهو يقول برثاء:

-أماه انهضي.

كرر جملته كثيرًا ولا زال يهزها بيديه ثم طلب من أخته أن تحضر له كوبًا من الماء وحين أحضرته سكب فوق وجهها قطرات منه فشهقت شهقة مكتومة ثم فتحت عينيها ببطء فظهرت ملامحه مشوشة أمامها، ظلّت الدموع تملأ عينيها وجسدها يرتجف بشدة حتى استطاعت أن تقبض على يده وكأنها أرادت أن تقول له بحواسها :

-لا تتركنا وتذهب!

تجمّعت دموع الفتى في مقلتيه وهطلت دموع الصغيرة ثم تحدث بابتسامة حزينة قال:

-أماه لا تقلقي ولا تؤلميني فما عاد في القلب موضع ألم جديد.

وجهت نظراتها المكسورة نحوه وقالت بتلعثم:

عدني بني أنك لن تتركني وتذهب.

انكمشت قسمات وجهه عبر جملتها ثم هز كتفيه بحيرة والتزم الصمت فتابعت هي برجاء:

-أرجوك عدني بهذا.

نهض الفتى عن فراشها ثم انحنى بقامته وقبل بطن كفها وأردف:

-أعدك أن لا ينقطع اتصالي بك أبدًا ما دمت حيًا، لكنني لا بد أن أبتعد عن هذه القرية كي ألملم ما تبعثر من كرامتي وكذلك روحي الممزقة لا بد أن تضمحل جروحها وما دمت هنا سأفقد كل يوم شريان من شرايين قلبي حتى أصبح أمامك جثة هامدة.

بينما كانا يتحدثان قاطعهما صوت مرهق أتى من بعيد:

اتركيه أم طارق، كنت أعلم أنه سيأتي يوم يطلب فيه هذا.

لم يكمل حديثه حيث قاطعه صوت هاتفه فمد يده في جيبه وأخرجه فإذا بالحكيم عامر يتصل:

-تنفس الأب الصعداء، كأنه كان في كابوس مزعج واستيقظ على خبر مفرح، فهذا الرجل الحكيم تبعث نبرات صوته راحة وطمأنينة لكل من سمعها، ضغط الأب على زر الاستقبال وتحدث بحزن:

-السلام على أخ لم تلده أمي.

أجابه المتصل قائلًا بحزن:

-وعليك السلام يا رفيق الدرب والعمر.

ثم تابع الثاني متسائلًا:

-هل ما سمعته حدث في المقابر صحيحًا؟

أجابه الأول بحزن:

-نعم.

خرجت الجملة من بين شفتيه كحكم الإعدام الذي ينطقه القاضي في حضرة متهم بريء، خرجت لتمزق روحه ثم اخترقت قلبه كالرصاصة، قتلت فيه الأمل وتوجت الحزن سلطانًا على قلبه، ظل الاتصال قائمًا بينهما ولكن الصمت كان المتحكم فيهما لعدة دقائق حتى استطاع "منير" أن يقول:

-طارق يود السفر ويستأذنني فما رأيك؟

ولأنه كان شارد الذهن لم يسمع جملته جيدًا، طلب منه أن يعيد على مسامعه ما قاله متحججًا أنه كان يشرب الماء وهذا ما جعله يصمت هذه الفترة الوجيزة من الزمن، لم يقل له أنه يبكي وأن ما حدث لصهره كفيل أن يقتله، وأنه لو كان له ولد لما أحبه كما

يحبه، فأعاد الأول على مسامعه ما قال مما جعل نبرات صوته تفضح بكائه وهو يرد عليه مستفسرًا:

-كيف هذا، أيسافر ويتركنا، لو علمت خالته بهذا الأمر لفارقت الحياة، وكذلك "فاتن".

لم يكمل حديثه، بل ابتسم ابتسامة رثاء ثم ساد الصمت لوهلة حيث أن منير يحفظه جيدًا ويعلم أنه لا يقول جملة إلا وأتمها وحين يقطع حديثه فهذا يدل على أن فكرة ما طرقت باب عقله فأذن لها بالدخول، التزم الصمت هو الآخر وانتظر فكرته وحين تخلص الثاني من صمته أردف:

-سيسافر ولكن إلى وطن اخترناه له منذ زمن بعيد.

قال منير مستفسرًا:

-لم أفهم جملتك.

فأردف الحكيم بإيضاح:

-علينا أن نسرع في إتمام زواجه.

انزوى الأب بين عينيه وقال:

كيف هذا والظروف..

قاطعه عامر قائلًا بحكمة:

-كنت سأحدثك في هذا قبل أن أعرف بما حدث وقبل أن يحدث، فلا بد أن يكونا معًا تحت سقف واحد، لأن طارق يحتاج أن يشعر بالأمان، فهو مذبذب للغاية وهذه هي الطريقة الوحيدة لاستعادة هدوئه .

صمت الثاني لوهلة كي يقلب الفكرة في رأسه جيدًا وحين ارتاح لها عقله وقبل ضيافتها قال لمحدثه:

-أتفق معك تمامًا ولكن لا بد أن أعرض عليه الأمر.

أنهى المكالمة معه ثم حاول أن ينهض عن مقعده كي يطمئن على زوجته، لكنه لم يستطع فلا زالت قدماه غير قادرتين على حمله، التزم مقعده كي لا يقلق عليه أبناءه رغم خوفه الشديد أن تسيء زوجته فهمه خصوصًا بعد أن وقعت مغشيًا عليها أمام عينيه دون رد فعل منه، تلاعب الشيطان بعقله لوهلة ثم استطاع أن ينحره، تذكر ربه واستعاذ به من شيطانه وقال مطمئنًا نفسه:

-لا أظن أنها ستسيء الظن بي.

طمأن نفسه بهذه الجملة ثم لمح ابنه يخرج من غرفتها وهي خلفه فابتسم في وجههما وقال بدعابة:

-استأذنتني في السفر وأنا أوافق لكن لي شرط أن أختار لك الوطن الذي يحتضنك.

تغيرت ملامح الأم وازدادت اصفرارًا على اصفرارها بينما ملامحه ازدادت نضارة وتفتح، عجيب أمره متقلب الحال دائمًا فتارة يبكي وأخرى يبتسم دون سبب، يغضب ويصفو في آن واحد، يحمل أطنانًا من الحزن في قلبه ومثلهم من السعادة، ينعي حال بلدته وأسرته ويغني مع طائره المفضل في ذات التوقيت، لا أحد يعلم بما يفكر، من يتعامل معه يظنه في بعض الأحيان طفلًا صغيرًا، وأحيانًا أخرى يراه رجلًا بلغ من العمر عتيًا، وتارة يصبح ابن التسعين خيبة والألف صدمة، وفي لحظة يكون حملًا وديعًا يسر الناظرين، وهذا هو حاله الآن عقب جملة أبيه، ملامحه مستشرقة وابتسامته قمر مضيء لوجهه، لم يعقب على جملة الأب بل انتظر أن يتابع حديثه، بينما والده صمت متأملًا قسمات وجهه الجميلة التي أرسلت إشارات طمأنينة وسعادة إلى قلبه، كان ينظر إليه بسعادة بالغة وكذلك هو أضحى يبادله نفس

النظرات وكأنهما عاشقان تقابلا على حين غرة منهما، وما زالت الأم تقف مكفهرة الوجه، واضعة يدها فوق قلبها تكبت ضرباته السريعة، ظنت أن قلبها سيغادر جسدها مع ولدها إن سافر، هو الآن بينهما وقلقة عليه للغاية، فما حالها إن غادر بلادها كيف ستنام وهو بعيد عنها، كيف ستأكل وهو لا يشاركها الطعام، من سيداعبها، من سيتقمص شخصيتها ويقلد صوتها، من يضحك عليها بالكلام المعسول عبر الهاتف بنبرة زوجها!، أسئلة دارت في خلدها مزقت شرايين قلبها وفجرت ينابيع عينيها فبكت بشدة حتى علا صوت بكائها فانتبه الرجلين لبكائها وحولا نظراتهما إليها ولكي يخمد الأب نيران قلبها كان لا بد عليه أن يتحدث وبالفعل هم بذلك قائلًا والابتسامة تطغى على ملامحه :

-لا تقلقي أم طارق فالوطن الذي اخترته له هي زوجته.

لم يعلق الاثنان على حديثه بل انضم إليهما فارس وقد فهم معنى الحديث رغم صغره سنه فكز على شفتيه غيظًا وقال متهكمًا موجهًا الحديث لوالده:

وضع رأسنا في التراب ثم تريد أن تتم زواجه، هذه مكافأة على ما فعله؟

التفت الجميع إليه فالأب علق على حديثه بكلمة واحدة خرجت من بين شفتيه معلنة عن غضبه:

-اخرس

والأم أكملت توبيخ الصغير بجملة قاسية:

-والله لا أخاف إلا منك وعليك أنت فكل يوم تثبت لي أنك متهور ومندفع ولولا طيبة والدك لقيدتك في المنزل مثلما يفعل الناس ببهائمهم.

قالت جملتها ثم بحثت عن أقرب مقعد وارتمت بجسدها عليه، ساد الصمت لوهلة، الأب كان ينتظر أن يعلق طارق على كلا الحديثين، حديثه وحديث صغيره، لكنه ظل ينظر إلى أخيه بنظراته الحنونة التي لم يغيرها قط، فنظراته دائمًا ما تظهر مكنون قلبه من حب لكل من يرمقه بها، وهذه المرة طالت النظرات للصغير وكأنه أراد أن يعلمه درسًا من خلال عينيه بل يعلم نفسه أيضًا وهو يردد في نفسه:

_"اتبع السيئة الحسنة تمحها"

وكأنه هو من أخطأ وخرج لغط الحديث من فمه فتبعه بنظرات الحب كي يمحو أثره من نفس أخيه، في الوقت ذاته استحوذ السكون على المكان وعندما فقد الأب الأمل في حديث الدرغل قال متسائلًا:

-لماذا لم تعلق على حديثي؟

فنظر إليه بعينين مكسورتين وأردف قائلًا:

_أعلم أنك تريد لي الخير دائمًا، لكن هل هذا هو التوقيت المناسب لما تقول؟

أشار له الأب بالجلوس وكذلك أمر فارسه أن يجلس هو الآخر دون تعقيب منه على الحديث ثم أجاب:

-اتفقت أنا وخالك عامر على أن يتم زواجك من فاتن في أسرع وقت دون إثارة غضب العائلة، فهم سيأتون لزيارتنا كعادتهم ثم يمكثون في منزلهم المجاور لنا أما العروس فستسكن معنا هنا وهكذا تجد نفسك في وطنك الجديد.

ابتسم لأبيه ابتسامة رثاء ولم يعلق على حديثه بل قال بصوت مخنوق:

-إئذن لي أبي بالسفر فهذا هو قراري الأخير.

تدافعت الأم بالكلام عقب جملته وجسدها ينتفض وركبتاها تتصارعان تخبطًا:

يا ولدي لا تتعب قلبي أكثر من هذا واسمع كلام والدك، هداك الله وحفظك لنا..

التفت إليها فرآها تبكي فتنحى عن مقعده وهرول نحوها، جلس عند ركبتيها وأمسك بيدها ثم طبع عليها قبلة ممزوجة بدموعه وأردف:

-أماه ما تفعلينه الآن هو ما يمزق قلبي، الزواج ليس حلًا وأبي يعلم هذا جيدًا، سأمكث في البيت مع زوجتي يوم، اثنين، عشرة، عشرين، مئة، ثم ماذا بعد؟

تخلى الصغير عن صمته وقال مندفعًا:

-ثم خروج إلى الشارع، ثم عار جديد يلحق بنا، ثم إننا لا نستطيع أن نرفع أعيننا في وجه أحد من أهلنا أو أعدائنا أو بهيمة عرجاء تسكن قريتنا.

نهض طارق عن الأرض ثم نظر لأخيه بحزن وتوجه نحو غرفته دون حديث، دلف داخلها وبكى بشدة، وضع يديه على وجهه واستند بظهره على الباب وازداد في البكاء حتى سقط بجسده أرضًا واحتضن رأسه بين ركبتيه ثم جعل من ذراعيه غطاءً لها، كتم الكلام حتى تراكم حبره تحت عينيه، شرد بمخيلته فرأى نفسه شجرة والعالم فأسًا يستأصل أغصانه وصولًا إلى جزعه، علم أنه لم يفلح في شيء هنا وأن الأمر سيزداد سوءًا وأنه لابد أن يترك هذه البلدة ويرحل، فلا جدوى لوجوده في بلدة معظم أهلها تساوت عقولهم بعقول بهائمهم، كور قبضة يده ثم ارتكز بها على الأرض ونهض بجسده، تحرك نحو فراشه ثم ألقى بنفسه عليه، وضع الوسادة فوق رأسه وتحايل على النوم حتى أتاه، غفي بين الحلم واليقظة، رأى ثعبانًا ضخمًا، أسود اللون مشعر الجسد، طوله يتخطى المائة متر وحجمه ضخم كحجم فيل لم يذق الجوع قط، رآه يقترب منه وهو نائم تحت شجرة التوت المحببة إلى قلبه في ليلة شديدة البرودة، كاد بردها أن يقتله وحين رأى الثعبان ظن أنه هالك فهو لا يستطيع الحركة وإن تحرك فكيف سيهرب من هذا الضخم الذي لن يترك له منفذًا يفر منه،

حين ظن ألا مخرج ولا منجى من هذا استسلم وسلم أمره لله وظل يراقب الحنش بعينين جاحظة حتى أصبح أمامه، أخرج الثعبان لسانه ولعق به وجهه مرورًا بجسده، كان يرتجف بشدة رغم أن أنفاس الثعبان كانت حارة للغاية مما جعل الشتاء يلملم حقائبه ويرحل عن جسده، لكنه لازال يرتعش، هذه المرة كانت الرعشة بسبب الخوف الذي أحل محل الصقيع، ظل هكذا حتى أحاطه الثعبان بجسده ووضع رأسه فوق أقرب غصن للشجرة من الأرض، هدأت نبضات قلبه وعاد إلى صدره بعد أن سقط أسفل قدميه من شدة الهلع، أحس حينها أن الوحش جاء ليكون له معطفًا يقيه برودة الشتاء، فبعد أن كان ينتفض من قسوة البرد أصبح بحال جيد وكأن الشمس أشرقت على غير موعدها ومنحته حرارتها، وكأنه يجلس قرب مدفأة، حتى أنه شعر بالطمأنينة كأنه في حضن زوجته، استغل متعة الليل ودفئه وسرح بحواسه فيها، استدعاها فأتته في أبهى صورها، ترتدي قميصًا أسود اللون، يظهر أكثر مما يخفي، به نافذة عند الصدر تبين مدى أنوثتها، شعرها المسترسل خلف ظهرها أنثى أخرى تضامنت معها لمتعته، عيناها المزودتان بكحلهما الأسود تعلنان عن اشتياقها ولوعتها

به، شفتاها كلؤلؤتين لم يلمسهما إنس من قبل ولا جان، أنفها الصغير كحبة فاكهة غالية الثمن نادرة الوجود، لم يذق طعمها إلا الملوك، أودجتها بارزة وكأن الرقبة مرصعة بالزمرد والألماس الطبيعي، حين رآها هكذا ناداها بعينيه فلبت النداء على عجل، هرولت نحوه دون خوف وحين ألقت بجسدها بين أحضانه، أخفض الثعبان بصره ثم حدقهما بعينين حاقدتين، انتظر حتى بلغ الشوق منهما الحناجر ثم فتح فاهه والتقمهما وقبل أن ينصهرا داخل أمعائه أخرجت فاتن من حذائها خنجرا حادًا وغرسته في قلب الثعبان فانتهى أمره قبل خروج روحهما.

****

صرخ الدرغل صرخة أفزعت كل من في البيت فهرول والده نحوه، وكذلك أخاه وتبعتهما أخته الصغيرة بينما الأم كانت تتقدمهم، جلست بجواره ثم أمسكت برأسه ووضعتها على صدرها وقالت ببكاء:

-استعذ بالله من الشيطان الرجيم وانطق الشهادتين.

قالت جملتها وهو لا يزال يشهق برعب وجبينه يتصبب العرق منه بغزارة وجسده يرتعد بقوة فتقدم الأب نحوه وجلس هو الآخر بجواره وقال بحزن:

-أظنه كابوسًا مزعجًا، استعذ بربك منه ولا تخف.

في حين كان فارس يقف عند الباب ينظر إليهم بحقارة، لا يهتم لأمر أخيه، ربما لا يفقه ما يحدث وربما أن طباعه تختلف كثيرًا عن طباع من ربياه وأخيه الكبير وربما بدا مندفعًا لحداثة سنه كما يظن أبوه، أما أختهما الصغيرة فكانت تبكي كعادتها عندما تجد موقفًا كهذا يحدث أمامها، ارتعاد جسده كان يزداد بينما عرقه يسيل بغزارة كالمياه الجارية، ولا يتحدث بما أمراه به والديه، سمحت الأم لنفسها بالبكاء ولا زالت تضمه إلى صدرها والأب وقف عاجزًا عن فعل أدنى شيء، يرى ابنه أمامه يضيع ولا يعرف كيفية إنقاذه، غاب عن الواقع لوهلة ثم فكر في انتشاله من هذه المأساة ولعلمه الثابت أن الحرب ستدوم سنوات وسنوات بين العائلتين، وربما تشارك عائلة ثالثة في هذه المعمعة رغمًا عنها، قرر أن يوافق على سفره، فحل معضلته ونجاته تكمن في الهروب، الترحال وحده الحل فكما أخبره سالفًا:

-لو تزوجت ومكثت في حضن زوجتي أيامًا وأيام هل سأقضي عمري هكذا دون الخروج من المنزل!

بعد أن فكر في حديثه واقتنع بما قاله عاد إلى واقعه ثم تحدث بنبرة مكسورة فقال:

-السفر هو الحل، أوافق على سفرك فأنت محق.

وجه حديثه للدرغل ثم مد يده نحو جبينه ليجفف عرقه فلسعته حرارته، انتفض قلبه حينها وقال بخوف:

-حرارته مرتفعة جدًا لقد أصيب بحمى، انهضي أم طارق واحضري لي قماطة بيضاء وبعض الماء.

نهضت الأم في عجالة وهرولت نحو الخارج، فتعرقلت وهي تركض ثم سقطت على وجهها لكنها قامت على الفور وأكملت طريقها، دلفت داخل غرفة النوم وسحبت من دولاب ملابسها قماطة ما ومن ثم توجهت نحو المطبخ، سكبت الماء في إناء كبير وتحركت به نحو غرفته، بينما أخوه لا يزال متسمرًا مكانه، صامدًا لا يحرك ساكنًا سوى عقله فقط الذي يحدث نفسه بحقد:

-أتمنى أن يسافر لعل ما ألبسه لنا من ثياب العار يهترئ في أعين الناس ويتجاهلونه.

حضرت الأم على الفور وبدأت تغمس القماطة في الماء ثم تعصرها جيدًا وتضعها فوق جبينه بعد أن ساعدها الأب في تمديد جسده على الفراش، كانت أطراف أنامله باردة كالثلج وجسده ظلّ ينتفض بشدة، بينما عيناه سال ماؤهما رغمًا عنه، وشفتاه طفق يحركهما ببطء، كان يود الحديث لكن الكلام أبى الخروج، فالحرارة لم تنفك ترتفع والأب بجواره يبكي ويقول:

-تحدث بني، انفض عنك غبار الكتمان، قل لي ماذا رأيت في منامك، لا تخف هكذا الشيطان يأتي للإنسان حين حزنه على هيئة كابوس مزعج، لا تجعله يتغلب عليك، اقهره بقوة إيمانك، بعزيمتك وصمودك.

في حين تدافعت الام بالكلام فنطقت برثاء:

-اتركه الآن، نريد الاطمئنان عليه فقط.

تحدثت وانخرطت في البكاء وكذلك بكت صغيرتها بينما قال الأب مهدئًا لها:

-اهدئي سيكون بخير.

قال جملته ثم نظر في ساعته فرآها الثالثة بعد منتصف الليل فتابع قائلًا:

-إن استمر الحال هكذا حتى الصباح سأستدعي طبيبًا، فقد تأخر الوقت الآن، ولا أظن أن أحدًا سيخرج من بيته في ظل الظروف الراهنة.

طأطأت الأم رأسها باستسلام وبدأت تدعو الله في نفسها أن يشفيه ويرفع عنهم هذه الغمة، فمنذ ولادته وهى تحلم وتمني نفسها بيوم فرحه، وأن تراه جالسًا على كرسي العرس بجوار عروسه، فحتى يوم خطبته لم يتحقق حلمها، مات والدها بعد عقد قرانه بساعة واحدة فانقلب الفرح إلى مأتم، لا تعلم ما السبب أهي لعنة أصابت حظ فتاها منذ ولادته، أم أن حظه العاثر هو دائمًا ما يقتل لحظات سعادته، دائمًا ما تسير الأمور عكس اتجاهاته، تقتل أحلامه وأحلام عائلته، الحزن مصاحبًا له في كل آن، لا يتركه يسعد ولو لوهلة، ورغم كل هذا فإنه يحث الجميع على الابتسام أمامه، يبث السعادة في نفوسهم رغم افتقاده لها، في كل حالاته يبتسم فيواري وراء ابتسامته المزيفة

حزنًا عميقًا تغلغل داخله، لا تتذكر الأم يومًا قط رفع فيه صوته أمامها، لا تتذكر أيضًا تطاوله عليها بالكلام أو عصيانه أمرها، تذكرت فقط رد فعله حين كانت تغضب منه وتفرغ شحنة غضبها فيه عندها كان يقبل جبينها معتذرًا ولا يتركها إلا بعد أن تصفو وتبتسم، كان يداعبها ويسامرها ويقضي على حزنها بخفة ظله، لثوانٍ ظلت شاردة الذهن مشتتة الفكر حتى رُفع آذان الفجر، وحين سمعت صوت المؤذن رددت خلفه ثم نهضت عن الفراش وكذلك الأب، توجها الاثنين خارج الغرفة، دلف الأب داخل الحمام ليتوضأ وبعد خروجه توضأت هي الأخرى وصليا معًا، أمَّها هو بينما صلت هي خلفه فريضة الصبح، كانا يبكيان بصوتِ عالٍ، ظلا يتضرعان إلى الله يطلبان منه العفو والصفح عن ولدهما، استغرقت الصلاة منهما ما يقرب من ساعة، سجودهما استحوذ عليهما معظم الوقت وحين انتهيا التفت الرجل خلفه وقال:

-سيحدث الله بعد ذلك أمرًا..

****

صباح يوم الجمعة، كان صباحًا غير كل صباح سالف، طرقات خفيفة على باب منزل طارق، على إثرها فتحت أخته الصغيرة فوجدت أمامها خالها "عامر" وبرفقته الجميلة "فاتن" وكذلك خالتها التي تجلس على كرسيّها المتحرك، تهللت أسارير الصغيرة ونادت بنبرة مرحة على والدتها:

-ماما خالي عامر وخالتي صفاء وفاتن هنا..

حمدت الأم ربها حين سمعت صوت صغيرتها وهي تبشرها بقدوم أعز الأحباب وقالت في نفسها وهي تهرول نحو الباب:

-حمدًا لك يا ألله، تعلم ما يحتاجه طارق فتلبيه دون طلب.

كانت على يقين أن الرجل الحكيم سيخفف ألم ولدها برؤيته وكذلك الفاتنة حين يراها ستذوب أوجاعه، فرغم أنهم يعيشون في قرية من الأرياف إلا أن تربيتهم تشبه كثيرًا عائلات المدن، عينا العاشقين تفضحهما وصراحة الشاب في الحديث مع أمه عن الفتاة جعلها توقن أن رؤيته لها ستساعده على الشفاء وكذلك تعتقد أنها إن حضرت سيعدل عن سفره لهذا بعد أن قضت فريضة الفجر مع زوجها وعقب تركه لها وذهابه إلى غرفته

ليستريح قليلًا، اتصلت بزوج أختها وابن عمها وأخبرته بما حدث وطلبت منه الحضور في الصباح دون ذكر اتصالها له، فلبى الرجل النداء وأحضر معه الدواء؛ رحبت الأم بالحكيم ثم احتضنت زوجة ابنها وطبعت على خديها بعض القبلات فردتهم الفتاة إليها كعادتها ومن ثم انحنت واحتضنت أختها وقبلتها وتحركت نحو مقبض الكرسي ودفعته للأمام حتى سارت به داخل غرفة ولدها الذي لا زال نائمًا في فراشه، اقتربت الخالة منه بمساعدة والدته فتحسست جبينه براحتها اليمنى واطمأنت حينما أدركت انخفاض حرارته، ثم اقتربت برأسها حتى صارت بمحاذاته وطبعت قبلة حنونة على جبينه وقالت :

-شفاك الله وعافاك بني.

تحدث الشيخ عامر آنذاك قائلًا بهدوء:

-اتركوه الآن يستريح وعند استيقاظه سنتحدث معه.

قال جملته وتحرك نحو الردهة بينما فاتن لا زالت متسمرة عند الباب تختلس ببصرها بعض النظرات من وجه حبيبها النائم، ودت لو تقتل حيائها وتجلس بجواره لتحتضنه وتزيح عنه آلامه

وأوجاعه، تمنت لو كانا يعيشان في بيتهما فقط ولا أحد يراقبهما، كانت ستسعده بكل وسيلة ممكنة، كانت ستقبل على كل مستحيل لأجله، فهو ليس زوجها، هو ابنها الذي لم تلده، لقد تغلغل حبه بداخلها حتى أصبح جنينًا تكون من نطفة حنانه عليها فصار طفلًا، خرج من رحم مشاعرها وسكن جسده فأصبح ولدها قبل أن يكون زوجها، لا تعرف شيئًا سوى أنه الحياة بالنسبة لها، تقطّعت أوصالها بالأمس عندما علمت من والدها أنه يود السفر، وأحست أن روحها تصارع جسدها تريد أن تفارقها، تماسكت فقط أمامه وما إن دلفت إلى غرفتها حتى نظرت إلى صورته المعلقة على الجدار، فانتزعتها ثم احتضنتها بقوة وارتمت على فراشها، شرعت تبكي وتعاتبه على قرار رحيله وتركه لها حتى سمعت أباها وهو يتحدث مع خالتها، وعندما انتبهت لحديثهما عن مرضه، ارتعدت بشدة وأصابتها هي الأخرى حمى قاتلة شُفيت منها سريعًا بعدما أخبرها والدها بأمر الذهاب إلى منزله صباحًا، حيث نحرت حمتها بسيف الحب، وعزمت أن تقتل كل ضعف يمنعها عن رؤيته، لم تنم ليلتها، بل باتت تعدّ حقائبهم وتجهّزها، وعندما أعلنت الشمس عن

ظهورها، بدّلت ملابسها، وساعدت والدتها في تبديل ملابسها هي الأخرى ثم صففت شعرها، وجلست على حافة الانتظار حتى أحضر والدها سيارة تقلهم إلى وجهتهم، غمرتها السعادة ورافقت البهجة دربها، وشوق اللقاء كان حليف فؤادها، ودعواتها صادقت لسانها حتى حضرت ورأته ممددًا على فراشه .

لتقول في نفسها بألم:

-ليتني أستطيع قتل كل شر يقترب منك.

استغرقت في حديث نفسها وهي تنظر إليه، ولم تنتبه أن الجميع قد خرج من الغرفة وتركوها معه وحيدة، وحين عادت إلى واقعها والتفتت حولها ولم تجد أحدًا منهم داخل الغرفة، تصبب عرقها من شدة الخجل ثم استدارت بجسدها نحو الباب فسمعت صوتهم خارج الغرفة، قدمت قدمها اليسرى ولا زالت اليمنى ثابتة مكانها ثم تراجعت بالتي حركتها قليلًا للأمام حتى أصبحت بجوار أختها، أرادت أن تخرج لكنها قالت في نفسها:

-يا ويلتي ماذا سيقولون عني الآن؟

في ذات الوقت كان هو قد استفاق من غيبوبته ونطق باسمها مما زادها ارتباكًا وخجلًا على خجلها، لم تستطع أن تتمالك أعصابها من شدة الخجل والارتباك فأسندت ظهرها على الحائط ثم وضعت يدها على فمها وأغمضت عيناها وهو لا يزال يهتف باسمها حتى سمعت أمه صوتًا ثقيلًا يأتي من الداخل فهرولت نحو الغرفة، رأته يحرك رأسه يمينًا ويسارًا وينادي باسم محبوبته، فاقتربت منه وجلست بجواره ثم نظرت نحو الباب لترى الفاتنة على حالتها السالفة، يدها فوق فمها وعينيها مغمضتين بينما وجنتاها تشعل من خلالهما عود الثقاب، اللون الأحمر كسا بشرتها البيضاء والعرق نهر من عسل ينبجس من مساماتها، ابتسمت الأم رغمًا عنها ثم نهضت عن الفراش واقتربت منها، ومن ثم احتضنتها لتخفف عنها وطأة الخجل، وبعد أن هدأت الفتاة في أحضانها خرجت من الغرفة بينما عادت الأم إلى ولدها لتجده غطّ في نومه مرة أخرى، دثرته بالغطاء وخرجت، فوجدت زوجها وزوج أختها يستعدان للذهاب إلى المسجد لقضاء صلاة الجمعة، انتظرت حتى خرجا وجلست مع أختها وابنتها تسألهما عن حالهما وتحكي لهما ما

يدور في قريتها وما تردده النسوة، وكم الحزن الذي حل على الجميع، ظلت تسرد لهما كل ما سمعت حتى انتهت الصلاة وعادا الرجلين إلى المنزل، ما إن رأتهما حتى توقفت عن سرد ما كانت تقصه ونهضت عن مقعدها ثم وجهت حديثها لفاتن قائلة بحب:

-حبيبتي اصطحبي والدتك معنا إلى المطبخ لنجهز الطعام.

نفذت الفتاة ما أُمرت به على الفور، وتركت ثلاثتهنّ الردهة للرجلين، جلسا بجوار بعضهما البعض ثم ابتدأ الحكيم كلامه بسؤال:

-هل أخبرته بما اتفقنا عليه؟

أجابه منير قائلًا بحزن:

-نعم لكنه رفض وأخجلني حديثه عندما تيّقنت أنه محق فيما قال.

هز الحكيم رأسه عدة مرات وقال بحزن:

-كنت أعلم أنه سيرفض.

التزم منير الصمت فتابع عامر حديثه قائلًا:

هل تعلم أنه يشبهنا كثيرًا في شبابنا، إنه نسخة مصغرة لكل منَّا، لهذا فإني أخاف عليه أكثر من نفسي وأعلم أن السفر هو الحل الأمثل لنجاته ولكن قلت لي أنه صرخ أثناء نومه ولم يحكِ شيئًا عما رآه.

أكد منير حديثه وأضاف:

-بل إني أظن أن الحمى التي أصابته بسبب ما رأى في منامه.

استأذنه الحكيم في إلقاء نظرة عليه لعله استيقظ من نومه فنهض الأب وتحرك نحو غرفته وبالفعل رآه مفتح العينين فأشار الرجل إلى صديقه بالنهوض واللحاق به داخل الغرفة، دخل الحكيم والأب يتقدمه، جلس كلاهما عند رأسه لكنه أبى أن يظل ممددًا أمامهما، فاعتدل في جلسته وأسند ظهره على الجدار ثم قال بصوت مرهق:

-مرحبًا عمي..

ابتسم الحكيم قائلًا:

-عمك أم خالك أم حماك يا ولدي.

حاول ان يرسم الابتسامة على شفتيه لكنها لم تطعه فصمت فتدافع أبوه قائلًا بمزاح:

-فاتن هنا وأظنها لن تخرج من البيت بعد اليوم.

لم يعلق الفتى على حديثه بل ظل صامتًا فاستشف الاثنان أن لا وقت للمزاح وأن ما يشغله أعظم من مزاحهما، انطلق الحكيم بسؤاله عما رآه في منامه ليلة أمس مما يجعله ينظر إليه بعينين دامعتين قبل أن يقول:

رأيت أنني هالك لا محالة، وأن ربي غاضب عليّ.

انقبض قلبا الرجلين وتغيرت ملامح الأب ومالت إلى الشحوب بينما استطاع الحكيم أن يحافظ على هدوء ملامحه وقال مستفسرًا:

-احكِ لي ما رأيت ولا تفسر أمرًا أنت جاهل بعلمه.

تدافع الأب بالكلام وهو يقول بنبرة حازمة:

_لا تقل ما لا علم لك به، فقط اسرد لنا رؤياك وأهل العلم يفسرونها إن لم يكن أضغاث أحلام.

في تلك اللحظة؛ نظر عامر إلى صديقه فاستشف من نظراته أنه يطلب منه الهدوء فصمت الرجل تنفيذًا لمَا أمره به صديقه ثم مد يده نحو جبين الشاب ليتحسس حرارته وما إن أدركَ الجبين مثلجًا حتى قال:

-الحمد لله الذي أزاح عنك هذه الحمى.

قال جملته وصمت وانتظر كي يتيح للفتى فرصة الحديث، لكنه فضل الصمت مما جعل الحكيم يطلب من صديقه أن يتركهما معًا ويذهب، وبالفعل نهض منير ودلف خارج الغرفة ثم أغلق الباب خلفه، فبدأ الحكيم حديثه قائلًا بهدوء:

-أسمعك احكِ لي ما رأيت، أعلم أنك لا تود أن تثير قلقنا عليك ولكن تذكر أنني صديقك قبل أي شيء آخر.

أومأ الفتى برأسه تفهمًا ثم قال:

سأحكي لك ما رأيت ولكن هل لي بكوب من الماء؟

تحرك الرجل على الفور نحو الثلاجة الموضوعة في الغرفة وأحضر زجاجة منها ثم سكب الماء في الكوب الموضوع فوق الصِوان الذي يجاور السرير ومن ثم أعطاها له، فشرب حتى ارتوى وسرد له ما رأى، وبعد أن سمع الحكيم ما قصه عليه علم أنها رؤيا، فحاول أن يحافظ على هدوء ملامحه بعدما بكى قلبه من الداخل حزنًا عليه، ولأنه أحس أن بكاء قلبه سيسيل دموع عينيه تقمص ملامح الفتى وأخذ يمزح معه حتى بدت البشاشة على وجهه، وانطلقت الابتسامة من بين شفتيه، تلك الابتسامة التي جعلت منه شابًا عشرينيًا، فلم يكن بإمكانه سوى اقتباس ملامح الشاب والكذب في التفسير كي لا يضع فوق عاتقه مصيبة ستحدث له عما قريب لذا كذب عليه وقال :

-لا تخف، فتفسير ما رأيت هو أنك ستدخل بامرأتك في ظل هذه الظروف القاسية.

ابتسم الفتى خجلًا، والتزم الصمت وكذلك الحكيم ود لو يستأذن منه ويخرج قبل أن تعود ملامحه الحقيقية ويفتضح أمره أمامه؛ فهو لم يكذب عليه قط، حل السكون أرجاء الغرفة حتى سمع طرقات على الباب وصوتًا ينادي طارق، مرت دقيقة وطرقات

أخرى خفيفة على باب الغرفة ثم فتح الباب ودخل الأب برفقة ثلاث من أصحاب ولده وقال:

-أصدقاؤك أتوا لزيارتك.

بينما انتهزها الحكيم فرصة للهرب واستأذنه في الخروج بعد أن رحب بأصدقائه، خرج من الغرفة فقط ليستدعي ملامحه الطبيعية ويتبرأ من تلك الزائفة التي استدعاها ليواري حزنه عن الشاب وحسرته عليه، وعندما ظهر الحزن عليه وبدا كمن فقد عزيزًا له، سأله الأب عن رؤيا ولده فأجابه دون النظر إليه:

-لا تشغل بالك، كرب وسيمر.

لأول مرة لا يصدقه فهو يعرفه جيدًا ويحفظه عن ظهر قلب، دائمًا ما يظهر الصدق في نبرة صوته فحديثه كالسيف يخترق قلب الذي يحدثه قبل مسامعه، لكن هذه المرة كانت نبرة صوته حزينة ومرتجفة على غير عادته، لكنه مضطر أن يصدقه فيما يقول لعله يكون صادقًا وارتجاف صوته بسبب قلقه الواضح على الفتى ليس إلا، هكذا ظن الرجل ثم التزم الصمت لوهلة وقبل أن يتحدث سمع صوت مكتوم لطلقات نارية، وضع يده

على قلبه ونظر إلى رفيقه فرآه نهض عن مقعده مفزوعًا وهو يردد قائلًا:

-رحماك يا رب.

خرج أصدقاء ولده مسرعين من الغرفة وكذلك الأم التي خرجت من المطبخ ووقفت في الردهة، حالة من القلق انتابت الجميع، وتساؤلات دارت فيما بينهم:

-ما الذي حدث؟

-هل قتل أحد آخر؟، أم أن أهل القتيل يجوبون الشوارع بسلاحهم يرهبون به أعدائهم؟

تساءل الأب والأبناء لكن الحكيم كان له رأي آخر فقال موقنًا:

الرصاصات خرجت مكتومة وهذا يدل على أنها سكنت جسدًا، هناك قتيل وقع لكن من هو؟

أجابه على سؤاله صوت هاتفه حين رن، نظر إلى الشاشة فرأى المتصل "محمد" ابن عمه، ضغط على زر الاستقبال ثم أنصت للمتحدث الذي قال:

لقد قتل سامح بن الطلحاوية، وعلي بن الوهابية.

هبط الحكيم بجسده فوق المقعد، ولم يتحمل الصدمة:

_لقد زج بعائلة أخرى إلى المعركة دون ذنب.

هكذا قال لنفسه حين سمع اسم القتيل الثاني وحين رآه منير بهذه الحالة التي يرثى لها، التقط الهاتف منه وتابع الإنصات والرجل يسرد ما حدث:

-رجلان من عائلتنا لا أعرفهما حتى الآن كانا ملثمين يستقلان دراجة بخارية، توقفا بها أمام منزل "سامح"الذي كان يجلس هو وصديقه "علي" بجوار الباب أخرجا الرجلين من تحت ملابسهما بندقيتين آليتين ثم شدا أجزائهما وأفرغا ما في خزانتهما من طلقات نارية في جسد الاثنين وانطلقا بالدراجة نحو الطريق المؤدية إلى ضفة النيل، لقيت الضحيتان مصرعيهما في الحال وسمعنا أن أهل صفوان كانوا قد حذروا "الوهابية" من جلوس ولدهم مع الأول وقالوا إن وجدناه يجلس معه سنقتله وأظن أنهم من فعلوها .

لم يعلق منير على حديثه بل أغلق الهاتف في وجهه وجلس هو الآخر على مقعده ثم غطى رأسه بكلتا يديه، ولا يزال أصدقاء ابنه يقفون عند باب غرفته ينظرون إلى بعضهم البعض في حيرة من أمرهم تمامًا، هل يرحلون أم يبقون فكما يحدث عند كل قتيل يسقط، تغلق المحال ويلزم الناس منازلهم إلا ذوي القتيل يجولون الشوارع بأسلحتهم، والنار تأكل قلوبهم فيبحثون عمن يخمدها داخلهم، يطلقون النيران بعشوائية على المنازل وفي الجدران، يحرقون الزرع إن وجدوا ويخربون التجارة ولا يبقون على شيء أمامهم يملكه أحد من أهل القتيل، خروج الشباب يعرض حياتهم للخطر فربما رصاصة غادرة تصيب أحدهم وربما خزانة كاملة تصيب الجميع، تملكتهم الحيرة وأهل البيت في وادي غير ذي زرع، لا ينتبهون لوجودهم، المصيبة عظيمة والكرب بلغ الحلقوم، دامت نظرات الحيرة بينهم حتى استطاع أحدهم أن ينهي الأمر وتحرك نحو الخارج فتبعه الآخران دون أن ينتبه أحدٌ لخروجهم سوى فاتن التي كانت تختبئ خلف الجدار وعندما رأتهم غادروا المنزل خرجت وربتت على كتف خالتها التي جلست مكانها حين سمعت الخبر المشئوم، فانتبهت الأم

لوقوف الفاتنة بجوارها ثم رفعت بصرها ترمقها، وجدت الدموع تسيل من عينيها بغزارة فانخرطت هي الأخرى في البكاء حتى استوقفهما صوت طارق وهو ينادي على "هند" أخته الصغيرة :

-هند.

هرولتا الاثنتين نحو غرفته كأنهما أرادتا أن ترتميا بين أحضانه، كل واحدة منهما كانت ترى فيه الأمان والحنان والعطف والاحتواء، دلفتا داخل الغرفة ثم قالت الأم بصوت أجش:

-ماذا تريد بني؟

أجابها وهو يوجه نظراته لحبيبته:

-أين هاتفي؟

خرجت الأم على الفور وتوجهت نحو غرفة نومها لتحضر الهاتف، تذكرت حين أجرت المكالمة إلى عامر أنها استخدمته وبعد انهاء المكالمة أخذته معها، بعد وهلة عادت وبيدها الهاتف أعطته إياه ثم طلبت من الفاتنة أن تحضر له طعامًا فأشار بيده رافضًا، لكنها أصرت لهذا تحركت الفتاة نحو المطبخ وعادت تحمل صينية تحتوي على طبقين ممتلئين بالطعام، وضعتها

بجواره ثم تراجعت بخطواتها إلى الخلف، فنظرت الأم إليها وقالت اجلسي بجواره وشاركيه طعامه، أخفضت رأسها في خجل بينما هو حدق والدته بنظرة عتاب، لكن الأم صممت على قولها ثم سحبت الفتاة من يدها وأجلستها على طرف الفراش وأمرتها أن تأكل معه، فأمسكت الفاتنة بالملعقة ووضعتها في الطبق الذي يحمل الشربة ثم وجهت بصرها نحو يدها، أما هو فظل ممسكًا هاتفه حتى سمع صوت أمه تأمره بترك الهاتف وتناول الطعام، وما إن مد يده نحو الطبق حتى خرجت المرأة من الغرفة وتركتهما، ترك الاثنان ما بيديهما وظلّا يحملقان في بعضهما البعض، النظرات التحمت التحامًا حميميًا كلقاء طال انتظاره سنوات عديدة، فمنذ أن تمت خطبتهما لم يجلسا تلك الجلسة بمفردهما، كانت الهموم تحاوطهما لكن عشقهما كان أقوى من كل هم فرض نفسه عليهما، ففي وجودها راحة وسعادة لقلب أجبرته الظروف على استضافة الحزن داخله، ولوجوده طمأنينة لم تعهدها هي من قبل رغم حنو والديها عليها، فقد خلق الله داخلهما فطرة نقية لا تشوبها الظروف ولا يحل محلها أب ولا أم رغم مكانتهما في قلب كليهما، العينان في خلوة وكذلك

العقلان شردا في ليلة زفافهما التي انتظراها منذ زمن، فستان أبيض وطرحة نفس اللون ترتديه العروس بينما يرتدي هو بذلة سوداء اللون، يجلسان على مقعدين تحفهما الورود من كل جانب، حلّ الابتسام ضيفهما ووقف الخجل عازلًا يمنع كل منهما من الاقتراب من الآخر، استمر الشرود حتى أن الطعام هربت منه سخونته واستحوذ عليه البرد، ولو وضع كل طبق على جبين أحدهما لعادت له حرارته من جديد، الأجسام استحوذت عليها سخونة الشوق، والواقع لم يكن له مكانًا بينهما، لحظات وسينتهي الأمر ويدخل الرجل جنة الأرض التي خلقها الله لأجله، لكن كما أخرج إبليس أبويهما من الجنة لا بد أن يخرجهما أيضًا شيطان في ثوب بشر، حيث أخرجهما من شرودهما صوت هاتفه المزعج فالتفت إليه ليجد صديقه "رفعت" هو المتصل، رفع الهاتف نحو أذنه وأجاب :

-مرحبًا رفعت.

رد عليه المتصل بقلق:

سمعت أنك مريض فأردت الاطمئنان عليك ثم الاعتذار منك.

ابتسم ابتسامة رضى وهو ينظر إلى حبيبته، كانت أذناه مع صديقه لكن حواسه مع التي تجلس أمامه، أبى اللسان أن يحدث غيرها فلم يعقب على جملة صديقه وكأنه لم يسمعها فتابع رفعت حديثه قائلًا:

-أردت الاطمئنان عليك فقط، ولكني لم أكن أعلم أنه سيأتي يوم وتأخذ موقفًا ضد أخيك الذي لم تلده أمك.

انتبه لحديثه فأجابه بعد أن ابتعد ببصره عن زوجته:

-لا.. لا تقل هذا فقط لم أكن أسمعك جيدًا، لا تقلق عليّ أنا بخير.

تنفس الثاني بارتياحيه وقال:

-سمعت ما حدث.

فأجابه في عجالة:

-سمعت أن رجلًا قتل، لكن لا أعرف التفاصيل.

أراد أن يسرد له القصة لكنه تحجج أن أباه وخاله يجلسان أمامه ويريدانه في أمر هام ثم اعتذر منه ووعده أنه سيعاود الاتصال

عليه في أقرب فرصة، مما جعل الفاتنة تبتسم بعفوية، علمت من حديثه أنه يود إنهاء المكالمة لأجلها هي، كانت الابتسامة على شفتيها كحورية من الجنة سقطت على ثغرها الصغير وبدأت تداعبه، اشتعلت الغيرة في نفسه من تلك الابتسامة الجذابة فأغلق الخط مع صديقه ووضع الهاتف بجواره لكنه لم يكد ينظر إليها ويتأملها حتى دخلت الأم عليهما، وجدت الطعام كما هو ولا زال الاثنان يجلسان في موضعهما كما تركتهما؛ فزفرت في ضيق ثم قالت بحنق:

-فاتن هيا جهزي الغداء لأبيك وعمك.

نهضت الفتاة عن الفراش ببطء، كانت تود أن تخبرها أمهليني بعض الوقت لكي أقتبس نوره، لكن حياؤها كعادته منعها من الحديث، تحركت نحو الخارج وتركت قلبها يواسيه، يحتضنه ويسقيه جرعات من شوق، بينما الأم أخذت موضعها وبدأت تضع الطعام في فمه بواسطة الملعقة، لم يشعر بما تفعله أمه ولا بطعم الطعام في فمه بل خرجت حواسه مع الجميلة تصحبها إلى المطبخ، تخيل أنها تقف على الطاولة تجهز الطعام وأنه عائد من عمله مرهق متعب بعد عناء يوم طويل، لم تنتبه لحضوره

فمشى على أطراف أنامله حتى أصبح خلفها فاحتضنها وهمس في أذنها:

-أحبك.

التفتت إليه والابتسامة تطغى على ملامحها ثم تعلقت في رقبته وقالت بحنو:

-أعشقك.

في نفس الوقت اخترق صوت الرصاص جدران المنزل فعاد إلى واقعه مفزوعًا، كانت الأم قد انتهت من إطعامه، وما إن سمعت ضجيج الرصاص حتى انكمشت في ذاتها أمامه بينما هو ذرف دمعتين ثم قال لنفسه:

-حتى الحلم يقتلونه بواقعهم المدمر.

لم يكد ينتهي من حديث نفسه حتى انقطعت الكهرباء عن منزلهم والمنازل المجاورة فأضاء هاتفه لينير الطريق أمام أمه وهي تسير نحو الخارج، وحين خرجت نهض هو الأخر وتبعها، نظر إلى الردهة فوجد أبويه يجلسان قبالة بعضهما البعض دون حديث، دفع مقعدًا جوارهما وجلس ثم تساءل بعفوية:

-إلى متى ستظل هذه الحرب قائمة؟

أجابه الأب دون تركيز قائلًا:

-إلى أن يشاء الله..

لكن الحكيم كان له رأي آخر ونطق به بعد أن أثنى على الله واعترف بقدرته على إنهاء حروب العالم كله بكلمة واحدة بل بطرفة عين:

-إنه قادر مقتدر وقدير عليم يفعل ما يشاء وقتما يشاء وحينما يريد، وما الحرب إلا شرارة انطلقت من فم معتوه فنفث الآخرون فيها ثم جمعوا لها الحطب من أنفسهم كي تصبح نارًا عظيمة، استعظموا قدرتها على شوي لحومهم، ثم شرعوا يلقون أنفسهم داخلها كي تزداد عظمتها ولا تنطفئ أبدًا، هم من دفعوها لكي تستوحش وتلتهم ما تبقى منهم، هم من حفّزوها لكي تهرول خلفهم وتحرق كل مخبأ يواريهم عن ألسنتها، هي لا تبقي ولا تذر، لأنها نار فتنتهم التي أوقدوها بأيديهم فأحرقتهم جميعًا، استساغت لحومهم كما يُستساغ الطعام استيساغًا.

ورغم كِبر عقل الأب، إلا إنه لم يفهم مقصد الحكيم من حديثه، وخجل أن يسأله التوضيح أمام ولده، فعجز عن الرد وكذلك طارق لم يعلق على حديث الرجل بل ظلّ صامتًا لبرهة، فاستشعر الحكيم عدم اقتناعهما بما قال أو ربما أراد الشاب إجابة أخرى على سؤاله، هكذا استشف من صمتهما فأراد أن يوضح الصورة بطريقة أخرى عله يفهم ما يقصده الشاب من سؤاله فقال مستفسرًا:

-هل تقصد من يكون سببًا في إنهاء الحرب؟

كان هذا حقًا ما قصده الفتى من سؤاله فأكد عليه قوله بإيجاز:

-نعم قصدت هذا.

ابتسم الحكيم في نفسه ابتسامة قهر وأجاب بإيضاح:

-الحكومة يا ولدي، وحدها القادرة على فض هذا النزاع ولكن كما تعلم إنها غائبة عن الساحة.

-كيف وكل من يقتل يحرر له محضر ويوضع فيه عشرات المتهمين.

هكذا أجاب الشاب دون تفكير فرد عليه الحكيم بإيضاح أكبر:

-ما حدث يا ولدي في ثورة يناير ليس هينًا، وكبش الفداء الوحيد في هذه النكسة هو الشرطة، لهذا هي تستعيد قوتها وستلقن الشعب درسًا لن ينساه أبدًا، فإن كان من أفرادها ظالمًا فمنهم أبطالًا أيضًا، لكننا بطبعنا شعب فرعوني، إن أجرنا أجرنا، وإن صمتنا عن ظلم ظُلِمنا، وإن أتيحت لنا فرصة الانتقام من كيان ما ترددنا دون التفرقة بين الصالح منهم والطالح، إن استعادت الشرطة مكانتها سيتوقف نزيف الدم إجبارًا ورهبة.

لاحظ الأب انخراطهما في الحديث عن السياسة فأراد أن يغير مسار المناقشة، فكم يكرهها والمتحدثين عنها، يكره ممثليها وقادتها والمستفادين منها لذا قال بدهاء:

-دعونا من هذا الحديث الآن، فهو لن يفيدنا في شيء

وقل لي يا طارق هل لا زلت مصرًا على سفرك؟

سؤاله أربك الفتى وجعله يسيل عرقًا فقبل قدوم الفاتنة كان عازمًا على السفر زاهدًا فيه، لكن حين جلست أمامه وأمعن النظر فيها وجدها وطنه الحقيقي، فتح شفتيه لينطق بما يريد ما أملاه

عليه قلبه، لكنه لم يستطع فالخجل استحوذ عليه وجعل الإجابة حائرة إما أن تخرج ليسمعها الاثنان تنفيذًا لحكم قلبه وإما أن تعود من حيث أتت مرضاة لعقله أولًا ومن ثم خجله، ظل صامتًا كأنه لم يسمعه فانتهز الأب فرصة صمته وأستأنف قائلًا موجهًا حديثه لعامر:

-أظننا قد اتفقنا أن نتمم الزواج عشية، وها هي العروس عندنا وأظن أن الزواج هكذا قد تم.

انتفض قلب الفتى، وكاد أن يقفز من صدره ويحلق في الفضاء فرحًا، وكذلك انتفض عقله لكن على عكس القلب تمامًا فانتفاضته كانت خوفًا وهلعًا بينما روحه وقفت حائرة بين هذا وذاك، مع من تكون مع القلب الذي يتمنى أن يرتشف من مشاعر الفاتنة أم مع العقل الذي يود إنقاذ صاحبه؟، حتى اهتدت للصمت وفضلت أن تسمع جواب الحكيم، ومهما كان الجواب سيكون الأصح وبالفعل تحدث الحكيم بحكمته وقال:

-الاثنين، سيتزوجها ويسافر، لكن أمهلاني أسبوعًا واحدًا، ترتب لنا فيه فاتن منزلنا هنا، وبعد ذلك ستكون ملكًا له في منزله.

في هذه اللحظة عادت الكهرباء وكأنها أرادت أن تكشف ملامح الدرغل التي احمرت خجلًا كثمرة طماطم، وكشفت أيضًا قسمات وجه الفاتنة، الذي صار كالنبيذ الأحمر يسيل عليه لعاب كل من ينظر إليه، أصبح الخجل سيد موقفهما وأضحى الحديث ملك يمين الحكيم فقط، فقد صدر القرار الذي لم يعترض عليه أحد سواء من الجالسين أو الواقفة خلف الستار بجوار خالتها وأمها، حتى الأب لم يجد حديثًا يقال بعد ذلك غير أنه نادى على زوجته آمرها بإحضار الطعام فقد تجرع جوعًا بينما ردت عليه قائلة بإيجاز:

-حاضر.

قالت كلمتها ثم سحبت الفتاة من يدها وتوجهت بها نحو المطبخ وما إن دلفتاه حتى نطقت المرأة واعظة الشابة بترك حيائها جانبًا ومحاولة إشعال جمر الحب في قلب زوجها لعله يعدل عن سفره ويستقر معها في بلدته أمام ناظريها، فأومأت لها برأسها تفهمًا لما قيل ثم عزمت على أن تغير مجرى الحديث بينهما كي لا يخنقها خجلها أكثر من ذلك فسألتها عن صغيرها "فارس" في حين أجابتها قائلة بثقة:

-كعادته لا زال نائمًا.

فرغتا من تجهيز الطعام ثم توجهتا به نحو المائدة، فنهض الرجلان وجلس كل منهما على طاولة الطعام ثم نادى الحكيم على الشاب داعيَه لتناول الغداء فاعتذر الفتى قائلًا بهدوء:

-أكلت منذ قليل.

نظر الرجل للحسناء وابتسم ثم وجه نظراته للشاب مرة أخرى وقال:

-اجلس معنا ولا تأكل.

قام عن مقعده ثم تحرك نحوهم وجلس ومن ثم جلست الأم بعد أن دفعت كرسي أختها جهة المائدة، وكذلك الفتاة جلست جوار طارق قلبها، استغرقوا دقائقًا في تناول الطعام، ثم نهضوا جميعًا عن الطاولة، لا أحد منهم كان جائعًا، بل أرادوا ممارسة حياتهم الطبيعية كي لا تقتلهم ظروف بلدتهم القاسية، رُفع الطعام عن الطاولة كما وُضع لم ينقُص إلا قليلًا، في هذا التوقيت استيقظ الفارس من نومه، وخرج من غرفته وهو يتمطى فقابله عامر بترحيب بالغ:

-بطلنا الصغير كيف حالك.

إثر جملته مال منير برأسه نحو أذن عامر وهمس قائلًا:

-لا تقل له هذا، فإني لا أخاف إلا منه وعليه.

استشاط الصغير غضبًا عندما رأى أباه يوسوس خاله حيث استشف أنه يشكوه له فلم يرد تحية الحكيم وتوجه نحو الحمام، بعد دقائق خرج منه متجهًا نحو الخارج فاستوقفه أبوه بنبرة آمرة:

-انتظر لا خروج من البيت الليلة.

عقب تلك الجملة تسمر في مكانه لوهلة ثم التفت إليه وقال بصوت مرتفع:

-لماذا؟

فتدافع عامر بالكلام قائلًا بذكاء:

-تعالى فارس اجلس هنا أريدك في أمر هام.

نظر الفتى إليه بعين حاقدة من شدة حقده خرج الزبد من فمه فلعقه بلسانه ثم اقترب وجلس بجواره ورغم أنه يعي جيدًا ما

سيقوله الحكيم إلا إنه لم يكن يستطيع الاعتراض على أوامره خصوصًا في حضور والديه، استوى على مقعده وانتظر الحديث فرمقه الحكيم بهدوء ثم قال متسائلًا:

-هل تعلم ما حدث اليوم في البلدة؟

رد عليه بحنق:

-جاءتني الأخبار عبر الهاتف.

أومأ له برأسه ثم أضاف سؤالًا آخر:

-ما ذنب الوهابية فيما يحدث حتى يقتل ولدهم؟

وهُنا ارتفع صوت الصغير وهو يرد على سؤاله بعقيدته:

-ذنبهم أنهم لم يمنعوه من مصاحبة أعدائنا فكان هذا جزاؤه ويستحقه.

عقب جملته وقف طارق منتصبًا كنخيل بلاده قبل أن تطاله يد آثمة كسرت أغلى ما فيه، فأشار له الحكيم بالجلوس مرة أخرى فجلس دون حديث ثم تابع الآخر كلامه وقال بدهاء:

-تعلم جيدًا أن هناك مصيبة حلت بعائلة أخرى وكذلك العائلة الأولى وأن الاثنين الآن يشهرون أسلحتهم وينتظرون أن يلمحوا طيف أحد من عائلتنا ليقتصوا لفقيديهم، سيقتصون ولن تعلن عائلة منهما مسؤوليتها عن الحادث كي يظل القاتل مجهولًا لدينا ولهما الحق في أخذ الثأر مرة أخرى ومع ذلك تريد الخروج لتكون أنت الفريسة السهلة التي يصطادونها دون عناء وتجعلنا في حيرة من أمرنا ويتفرق دمك بينهما ثم يضيع..

رد الفتى الصغير بحماقة:

-لا أحد يستطيع قتلي.

-بل يستطيعون قتلك وقتلنا جميعًا إن خرجنا من منزلنا الآن ولهم الحق في ذلك.

كان هذا رد أبيه على جملته التي جعلت شعر رأسه يشتعل غضبًا وما تحمل الصبر على حماقته، لكن الحكيم كعادته يمتاز بالهدوء في الحديث وإن كان الذي أمامه يستفزه سواء أكان عمدًا أو عن غير قصد، وهذا ما جعله يقول لمنير:

-اهدأ ولا تنفعل، فارس ليس صغيرًا ويعي ما يقوله جيدًا..

علم الأب أن الحكيم يريد امتصاص شعلة الحماقة المستحوذة على عقل ابنه فالتزم الصمت وأعطى مساحة للحكيم كي يكمل خطته لعلها تنقذ فتاه قبل أن يورطهم في أمر ما يخص تلك الحرب القائمة وبالفعل تابع عامر حديثه مع الفارس الذي هدأ قليلًا إثر دفاع الحكيم عنه ووجه عينيه نحو الرجل لكي ينصت لحديثه بجوارحه فاستأنف الآخر كلامه قائلًا بذكاء:

-الذكي يا بني هو من رأى حفرة أمامه فوقع فيها ثم خرج منها كما تخرج الشعرة من العجينة، ولكن الأذكى منه من رأى الحفرة أمامه فابتعد عنها.

حملق الفتى في وجهه بعينين حاذقتين فأكمل الرجل حديثه موجهًا له سؤالًا:

-تريد أن تكون الأول أم الثاني؟

أخفض عينيه أرضًا ولم يعلق على حديثه فتابع عامر حديثه مجيبًا على نفسه:

- أثق في ذكائك وأعرف أنك ستقصد الثاني، لهذا إن خرجت الآن من المنزل ستكون الأول.

نهض الفتى عن مقعده وتحرك نحو باب المنزل مما جعل الجميع يزفر في ضيق، في حين هم أبوه باللحاق به كي يمنعه من الخروج ولو بالقوة، لكنه خيب ظنهم جميعًا، لقد توجه نحو الباب كي يغلقه خشية أن يتجرأ أحد عليهم ويدخل، وحين أغلقه واستدار إليهم بوجهه، تسمر الأب مكانه ثم قبض على ذقنه من شدة الخجل، بينما عاد هو إلى مقعده فتدافعت الأم بالكلام قائلة:

-فارس، هل أحضر لك الطعام؟

في حين قالت فاتن بحب:

-بل أنا من يجهزه له.

نجح الحكيم في امتصاص شعلة اندفاع الصبي ثم بعد ذلك نهض الصغير وتحرك تجاه المائدة لتناول الطعام، أما الحكيم فقد بدأ يسرد لهم قصص الأنبياء واحدًا تلو الآخر كان يتعمد أن يلقي الضوء على المعاناة التي عاناها كل نبي منهم حتى وصل إلى قصة أهل الطائف مع رسول الله ورسالته إليهم ودعوته لهم بالحب والخير والجنة، ثم تطرّق إلى كيفية مقابلتهم له وما فعلوه معه،

ومن ثم اختتم حديثه بكلمات أبكت الجميع حيث قال والدموع حائرة في عينيه:

-هناك بعض الأشخاص تجدهم يركضون نحو الهاوية فتصرخ محذرًا إياهم فيأخذونك معهم عنوة، هؤلاء لا تصنيف لهم، لا هم بشر ولا هم من نوع الحيوانات ولا تصل مرتبتهم إلى الجماد، لا هم يفقهون ما يسمعونه ولا يعقلون ما يقولونه، حياتهم خراب وقربهم دمار ونصيحتهم هلاك لناصحيهم، متواجدون بيننا بكثرة ويتكاثرون بكثافة، ترى الواحد منهم تعجبك هيئته لكن ما إن تقترب منه حتى تعلم أنه وما يلبسه سواء، لا عقل لديه ولا حواس، هذه النوعية تفتخر بالفجر وتتباهى بالمعصية، وتأمر الناس بالشر، لا يتركون فقيرًا إلا أذلوه ولا غنيًا إلا ورافقوه، لا يرون ضعيفًا إلا واستعبدوه، تلك الفئة الضالة من الناس، يعجبك حديثهم إن كانوا لهم عندك مطلب، وتشمئز من كلامهم إن كنت أنت من له مصلحة، ردهم بارد وحياؤهم منتحر وأخلاقهم هاربة منهم ورغم هذا في المساجد تجدهم يتدافعون ليكونوا أوائل الناس خلف الإمام، وإن منهم من يؤم الناس دون فقه ولا علم فقط للتباهي، هذا النوع استحوذ على عقول شباب

بلدتنا فجعلهم يتكبرون ويعيِّرون بعضهم البعض بألقابهم الزائفة وهم سبب بحر الدم الذي ينزف الآن، اليوم أنا بينكم وغدًا لا يعلمه إلا الله فإن حدث لأحدكم مكروهٌ، فليحكم عقله وليجعل الله دائمًا نصب عينيه ولا يخضع لأحد غير من يطمئن له قلبه، لا تتركوا آذانكم لبشر يسكب فيها سم كلامه، فالفتنة نائمة تستيقظ بكلمة من أفواه شياطين الإنس ولتعلموا أن شيطان الجن يفر هاربًا إن استعذتم بالله منه، لكن شياطين الإنس لا يهربون وإن قرأت عليهم القرآن كاملًا...

أنهى عامر حديثه ثم استأذن منير في الانصراف والذهاب لبيته المجاور، لكن الثاني رفض انصرافه قائلًا بجدية:

-لا، البيت هناك يحتاج تنظيفًا، منذ فترة وهو مهجور وأظن التراب اتخذه مسكنًا له، انتظر حتى الصباح وستذهب أم طارق ومعها فاتن ينظفانه، أما الليلة فالمبيت هنا.

وأمام إصرار الثاني صمت الأول ولم يعلق فتابع منير حديثه موجهًا إياه لزوجته:

-جهزي غرفهم.

ردت بلهفة:

-جاهزة بأمر الله.

نهض الحكيم عن مقعده ثم دفع كرسي زوجته أمامه وتبعته فاتن حتى دلفا إلى غرفتيهما، ثم نهض كذلك منير وتوجه نحو غرفته وخلفه زوجته، أما طارق فظل ماكثًا في الردهة، خاف أن يدخل غرفته فينتهزها فارس فرصة ويخرج إلى الشارع، خصوصًا أنه استيقظ منذ قليل والليل سيطول عليه وهو جالس بمفرده وأنه لم يتعود المكوث في البيت أكثر من ساعتين فقط، حاول أن يتحدث معه ليسرق الوقت لكن الصغير كان صادًا في حديثه، مما جعله يلتزم الصمت لوهلة ويستعد بذاكرته للهروب من الواقع كما تعود، كلما أرهقه الواقع لجأ للخيال، هذه المرة تخيل أن زوجته مراسلة إخبارية بإحدى القنوات المصرية تبث أخبار ما يحدث في العالم، فتح التلفاز فرآها أمامه مبتسمة متمكنة من حديثها، واثقة في نفسها، افتتحت كلامها كما تفعل زميلاتها دائمًا :

-السلام عليكم، سادتي وآنساتي يؤسفني أن أنقل لكم هذا الخبر المحزن، هبطت نساءٌ جميلات للغاية من كوكب زحل وتحديدًا

في شمال البلاد، يحملن الأسلحة في أياديهن، يقتلن كل من تقابلهن من الإناث ويؤسرن الرجال، يقيدن حريتهم بحبسهم داخل منازلهم ووضع حارسات عليهم وإن حاول رجل منهم الهرب تقتله الحارسة على الفور، إلى الآن تمكّنَّ من الاستحواذ على معظم محافظات الدلتا وهن قادمات في طريقهنّ إلى العاصمة فتوخوا الحذر نجانا الله وإياكم والسلام عليكم ورحمه الله وبركاته.

ابتسم في نفسه وقال ممازحًا مغازلًا اياها:

-حتى إن كان الخبر كاذبًا سأصدقك، الفاتنة تقول ما يحلو لها.

كانت هذه هي حيلته إن أراد الهروب من واقعه، الخيال صديقه المخلص الذي كلما احتاجه وجده بجواره، ظل يتخيل حتى غط في النوم على مقعده، بينما أخوه لم يجد من الجلوس في الردهة فائدة فنهض هو الآخر وتوجه نحو غرفته، ظل قابعًا بها حتى آذان الفجر ثم راح في نومه من جديد، لم يسمع أحد منهم الأذان فاليوم كان شاقًا على جميعهم وما إن مددوا أجسادهم على الفراش حتى ماتوا موتتهم الأولى؛ وفي الصباح عادت إليهم أرواحهم من جديد فاستيقظوا، تحركت أم طارق وفاتن إلى

المطبخ لإعداد الطعام والرجلين كل منهما أدى فريضته ثم جلسا في الردهة مرة أخرى، سمعا صوتًا ينادي عبر مكبر صوت في أحد المساجد يقول :

-البقاء والدوام لله؛ تُوفي إلى رحمة الله صفوان الربيعي.

هنا تأكدا الاثنين أن من فعل حادثة أمس هم أهل صفوان، أخرج عامر هاتفه وتفحص قائمة أصدقائه، ثم توقف عند اسم الحج "أحمد"، ضغط على زر الاتصال وما إن رد عليه محدثه حتى قال:

-السلام عليكم ورحمه الله وبركاته، يا صديقي العزيز، هل ستذهب إلى المقابر لحضور الجنازتين؟

رد عليه السلام ثم أجابه بتأكيد:

-نعم سأذهب.

صمت عامر لوهلة ثم قال بخجل:

-أود أن أعرف ما يقوله كبارهم بعد الانتهاء من مراسم الدفن.

استمع الرجل لما قاله جيدًا ثم صمت لم يكن يعرف بما يجيبه ولم يفقه معنى حديثه حتى استأنف الأول كلامه قائلًا بإيضاح:

-لا تسيء الظن بي فقط أتمنى أن يكون من بينهم عاقل يحقن الدماء بكلمته.

تنهد الثاني بارتياحيه ثم قال:

-أعي ما تقصده صديقي العزيز وأنا أتمنى ما تتمناه وأكثر، انتظر عودتي سأوافيك بالأخبار.

-لم يولد الجهل يتيمًا فهو ابن التعصب وحفيد التكبر ولا يزال ينخر عظام الضعيف منهم حتى يقضي عليه، وكل من كان فيه خصلة من الثلاثة فهو هالك لا محالة، إن لم يتخلص منها ويلجأ إلى الله طالبًا منه العفو عما سلف، هكذا ترتقي الأمم وتنهض بمجتمعاتها، ولا نزال متخلفين حتى نترك ما ربَّانا عليه أجدادنا من عادات وتقاليد لا تمت لديننا بصلة.

هكذا تحدث الحكيم مع صديقه منير بعد ما أنهى المكالمة مع صديقه الأول وحين انتهى من الحديث هز منير رأسه عدة مرات تصديقًا لما قال ثم استعجل زوجته قائلًا:

الفطار يا أم طارق.

****

بعد صلاة الظهر جاءتهم أنباء ما قيل بعد الدفن فلقد قال كبير عائلة الطلحاوية:

-قتلوا منا رجلًا لا يعوض بألف منهم ولكن نحن لسنا مثلهم نقتل من لا ذنب له، الثأر ثأرنا وسنأخذه من فرع الربيعي فقط ولا علاقة لنا ببقية فروع هذه الشجرة الملعونة.

ثم قال كبير الوهابية وهو يقف عند قبر فقيده:

-يعلم الله أن ما قيل بشأن أنهم حذرونا من جلوس ولدنا مع فقيد الطلحاوية ما هو إلا كذب وافتراء، وأننا ما كنا نود يومًا، أن نحمل سلاحًا ونشهره في وجه أحد ولكن ما باليد حيلة دفعونا إلى ما نكره ولن نترك ثأرنا والقصاص شرعه الله لنا وسنقتص لفقيدنا ممن قتله ونحن نعرفه جيدًا.

خاب ظن الحكيم وتلألأت الدموع في عينيه ثم قال بحزن:

-هلكنا جميعًا.

****

في هذا التوقيت رن هاتف طارق فوجد المتصل صديقه رفعت، تردد لوهلة قبل أن يرد ثم خضع للاتصال:

-السلام عليكم.

أجابه طارق:

-وعليكم السلام، كيف حالك يا رفعت؟

رد عليه الأول بحزن:

-نحمد الله على كل حال، عدت الآن من المقابر والجو ملل للغاية، الحزن مستحوذ على وجوه الناس، والقهر يسكن قلوبهم.

وأثناء حديث صديقه سالت الدموع حتى انتهى من حديثه فرد عليه بنبرة باكية:

-الفتنة توغلت داخل قلوب الجميع وستقتلهم وتقتلنا معهم.

سقطت دمعة وحيدة من عين الأول ثم قال مؤكدًا حديثه:

-صدقت يا صديقي.

قال جملته وتبعها بسؤال قبل أن يتحدث طارق سائلًا:

-متى أراك؟

كان السؤال مفاجأة بالنسبة له جعلته يصمت لوهلة ثم أجاب:

-تهدأ الأمور قليلًا ونلتقي في المتجر كعادتنا أو في المخزن فمنذ فترة لم أذهب، سأستأذن والدي في الأمر وأبلغك، أراك على خير صديقي.

انتهت المكالمة بين الصديقين على ما اتفقا عليه ثم نهض طارق عن فراشه وسار خارج الغرفة متجهًا نحو الحمام، ألقى السلام على الرجلين ومضى قدمًا في طريقه وما إن فرغ من حمامه وتوضأ ليصلي الظهر حتى اصطدم بفاتنته وهى عائدة من منزلهم، جاءت تأخذ دواء والدتها ومن ثم تعود من حيث أتت، كانت ترتدي عباءة سوداء اللون وتعصب منديلًا فوق رأسها والتراب ساكن وجنتيها بينما عيناها مكحلة به، وما زادتها بعثرة ملابسها إلا جمالًا على جمالها، حدقها بعينين تلمعان بالشوق والحنين، أطال التحديق فيها فاحمرت وجنتاها وتبللت عرقًا فأصبح وجهها شبيهًا برغيف فاخر خرج للتو من الفرن يغري جائعًا لالتهامه

والتلذذ بسخونته، وهنا انتفض قلبه بشدة وشفتاه كانتا في صدام حميمي، بينما هي غابت عن وعيها ونسيت ما قدمت لأجله، لا زال الصمت واقفًا بينهما كحائل يمنعها من الاقتراب أكثر أو الابتعاد وكذلك الكلام حتى جاء رابعًا ليفسد خلوتهما ويجعل من الصمت لصًا خائبًا حين يلمح طيف أحدهم قادمًا من بعيد فيظنه شرطيًا أتى ليقبض عليه، خرج فارس من غرفته ونادى عليها :

-فاتن.

الخدان الحمراوان تحولا إلى ليمونتين ذابلتين في غضون ثوان عقب كلمته والعينان الناصعتان المفتحتان أجفلتا أما القلب فقد هوى أسفل قدميها، والأعصاب انسابت بينما الجسد تمايل للخلف وللأمام، كانت سيغشى عليها لولا أن طارق تخلى عن صمته وأجاب أخاه نيابة عنها:

-نعم فارس.

لملمت الجميلة ما تبقى لديها من قدرة تجعلها تسير على قدميها نحو غرفة خالتها ثم تحركت إلى هناك، وما إن دلفت داخلها حتى

هبطت بجسدها فوق الفراش والتقطت انفاسها التي كانت ستفقدها منذ قليل في حضرة زوجها، ثم حاولت أن تزيح نظراته الحنونة عن مخيلتها فأبى المشهد أن ينصرف عنها فتابعت رؤيته بخيالها وقالت في نفسها:

-أيها الدرغل كفاك ما تفعله بي، كلما أراك أذوب في عينيك مثل قطعة سكر تذوب في فنجان قهوة، ابتسامتك تتسلل في أعماقي بطريقه غريبه تجعلني أشعر بقلبي وأنت تمسكه بكلتا يديك، تداعبه برفق وتقبله بعطف، حتى أتلاشى بين يديك ولا أحس بذاتي إلا وأنا مستلقية في أحضانك، أغفو بين ثنايا روحك، يا لك من عاشق تبعثرني كيف ما تشاء، ويا لي من عاشقة مجنونة أختلي بك بمخيلتي، وقبل أن أمارس طقوس عشقي عليك كيف ما أشاء يقتلني حيائي .

****

مر يوم وآخر وما من جديد سوى في بيت عامر الذي كان قد انتهى من تجهيز البيت لينتقل إليه هو وأسرته، وعندما أصبحوا في منزلهم نادى الرجل ابنته وأمرها بالإنصات إلى حديثه بعقلها وقلبها قبل أذنيها، تربعت أمامه واستحضرت جوارحها لتستمع

لما سيقول، كذلك الأم كانت تجلس بجواره منصتة لحديثه بترقّب، بدأ الحكيم حديثه قائلًا:

-كنت أود أن أراكِ ترتدين فستانك الأبيض، وأرى الفرحة تخرج من قلبك عبر عينيكِ، لكن الأمر يزداد سوءًا والغمة قد تطول لهذا قررنا أنا وعمك منير تعجيل زواجك، أمهلت نفسي أسبوعًا مضى منه يومان وغدًا إن شاء الله سنذهب إلى منزلنا في المدينة أنا وأنتِ وخالتك وربما زوج خالتك لنحضر جهازك من هناك ثم نعود، ما أود قوله ولا بد أن تحفظيه جيدًا هو أن زوجك يحتاجك بشدة، فلا بد أن تكوني وطنه الذي يأويه كلّما شعر بالغربة، لا تجعليه يهرب من جلوسه معك بكثرة ثرثرتك، الرجال يعشقون المرأة التي تنصت حين يتحدثون، لا تلك التي تأخذ ربع الحديث ثم تنهال عليهم بما استشفته من حديثهم، اجعلي من نفسك خزانة لأسراره فلو فقد فيكِ الثقة لجأ لغيرك فهكذا نحن البشر رجال ونساء خلق الله فينا فطرة استحسان الحديث مع الجنس الآخر فاجعليه يعشق الحديث معك .

قاطعته زوجته قائلة باندفاع:

-لا تقلق يا زوجي العزيز ابنتنا عاقلة.

قهقه الرجل بصوت عالٍ وقال:

-قلت المرأة العاقلة لا تقاطع زوجها حين يتحدث.

نظرت إليه الزوجة بغضب ثم قالت:

-ماذا تقصد هل أنا مجنونة؟

ابتسم لها ابتسامة صافية ثم ربت على يدها وأردف:

-أنتِ سكني وجنتي، رفيقة دربي ووطني.

تنحنحت الفتاة وقالت ممازحة:

-احم. احم. انتبها هنا محرم يجلس معكما.

تعالت الضحكات وعمت السعادة أرجاء البيت ثم تابع الحكيم حديثه السالف قائلًا بحكمة:

-الرجل يعشق المرأة الهادئة المطيعة المبتسمة دائمًا، يكره الكئيبة الثرثارة سيئة الظن، يحب المرحة الشقية أوقات المداعبة، ويبغض المتزمتة المتذمرة المتشمتة.

يحب العقل أثناء الحديث ويكرهه وقت الصفاء، كوني امرأتين في واحدة بل أربع نساء، واعلمي أنكِ إن عرفتِ نقاط ضعفه ملكتيه، وان استطعتِ استغلالها، فاستغليها لنجاح حياتكما وإياكِ أن تستعمليها ضده، سيكرهك ويكره اليوم الذي جمعكما ويوم التقيتما لأول مرة.

****

في هذا الوقت كان طارق قد استأذن من والده في الخروج من المنزل ليتفحص المتجر خاصته وكذلك المخزن، أبت الأم أن يأذن له في الخروج ولكن الأب أعطاه الإذن بعدما ظن أن خروجه سيكسر قهره وحزنه بسبب ما حدث له في المقابر منذ أيام، كان الأب ينظر للأمور من وجهة نظر أخرى غير التي تراها الأم فبعد حديث كبار العائلتين علم أن لا خوف على ولده من ذويهم فسمح له على شرط قائلًا:

-لا تتأخر بني كثيرًا فالليل في بلدتنا موحش ومخيف.

فرح الفتى بموافقة أبيه ثم طبع قبلتين إحداهن على جبينه والأخرى على يده وكذلك فعل الأمر نفسه مع والدته ثم تحرك

نحو الخارج، وقبل أن يمرق من الباب وقف فجأة والتفت إليهما ثم حدقهما بعينين دامعتين وكأنه يودعهما، انقبض قلب الأم حينها وتوسلت زوجها أن يتراجع عن إذنه، لكن سرعان ما أنهى الفتى نظراته وأغلق الباب خلفه خشية تراجع والده عن قراره ثم توجه بخطواته نحو منزل فاتن، وصل إلى هناك ثم وقف عند الباب لكنه لم يستطع أن يطرقه بيده، كان يود أن يراها لم يكن يعلم لماذا يتوق لرؤيتها هي وجميع من حوله، لكن منعه شيء مجهول داخله من دخوله منزلهم، فتراجع عن الفكرة ثم مضى قدمًا في طريقه حتى وصل إلى منزل صديقه "صادق" أخرج هاتفه من جيبه ودق عليه فأجابه صديقه، علم منه أنه داخل المنزل فقال له أنه يود الجلوس معه قليلًا قبل أن يذهب إلى دكانه وأنه يقف أمام منزله، فتح الثاني الباب واستقبله بالأحضان ثم أغلق الخط وسار به داخل المنزل، جلسا الاثنين معًا في غرفة الثاني وتبادلا الحديث معًا وبعد مرور نصف ساعة استأذن طارق في الانصراف ثم خرج من المنزل، ظلّ يتجول في الشوارع ينظر للبنايات للأعمدة والأرصفة وكذلك الجدران، الشيء الوحيد الذي لم ينظر إليه هم المارة في الشارع، على

الرغم من أنهم كانوا يحدقونه بغرابة ويتغامزون فيما بينهم، لكنه لم يكن يبالي لأمرهم فإرضاء الناس غاية لا تدرك، وصل إلى منزل صديقه الثاني "رضا" جلس معه بعض الوقت ثم انصرف، ظل ماشيًا حتى وصل إلى متجره فتحه وجلس على مكتبه، بدأ أصحابه يتوافدون إليه يجلسون معه يسألون عن حاله وصحته، امتلأ المتجر بالشباب وكان من ضمنهم رفعت الذي استغرق الحديث معه وقتًا ليس بالقليل حتى ارتدى الليل عباءته السوداء وحلق في السماء، ثم شرع الأصدقاء ينصرفون واحدًا تلو الآخر وكان آخر من انصرف منهم هو "رفعت"، أغلق المتجر وقد تبدلت حالته من الأسوء إلى الجيد ثم توجه نحو المخزن وما إن دلفه حتى سمع أصوات البنادق تصدح في السماء، وضع يده على قلبه ثم رفع بصره إلى السماء وقال :

-اللهم احقن الدماء، اللهم اقتل الفتنة.

عقب جملته رن هاتفه فكان المتصل أباه، وضع الهاتف على أذنه وأنصت للمتصل فقال الأب بقلق بالغ:

-أين أنت؟

أجابه بهدوء:

-انا في المخزن لا تقلق أبي.

رد عليه بصوته الحزين قائلًا:

-امكث عندك حتى الصباح ولا تخرج، أرجوك يا ولدي لا تقتلنا بلا مبالاتك.

وعده الفتى بعدم الخروج من المخزن حتى الصباح كي يطمئنه ثم أغلق الهاتف معه، بينما الفاتنة انتحبت وبكت بكاءً شديدًا عندما علمت أنه خارج المنزل، أحست أن قلبها سُلب منها، وأن جوارحها تود الخروج للبحث عنه والمبيت بجانبه، وكذلك الحكيم حين علم رفع يده إلى السماء داعيًا ربه أن يكفيه شر أصدقائه فليس له أعداءً يخشى عليه منهم.

مضى الليل على الأسرتين كأنه دهر، لو جمعت دموع الأم والفتاة التي سالت من عينيهما لأسقت جملًا اصطبر على العطش شهرًا كاملًا، أقبل الصباح وأمسك كل منهم هاتفه وبدأوا يدقون عليه ولكنهم فوجئوا أن هاتفه "ربما يكون مغلقًا أو غير متاح حاليًا" مما زادهم قلقًا ورعبًا عليه، وحين علم عامر بأمر هاتفه توجه

نحو منزل منير واستأذنه في ارتداء ملابس الخروج لكي يذهبا إلى المخزن بحثًا عنه، ارتدى الأب جلبابه وعمامته ثم سار معه وبعد نصف ساعة تقريبًا وصلا إلى هناك، رأيا قفلًا موضوعًا على الباب، طرقا الباب بعنف فما من مجيب، استأذن الأب أحد جيران ولده في مطرقة فأحضرها الرجل ثم كسر بها القفل ودلفوا الثلاثة داخل المخزن، بحثوا عنه فلم يجدوه، فأخرج منير هاتفه وعاود الاتصال عليه، لكنه لم يجد ردًا مميزًا عن سابقه، حينها هبط عامر بجسده أرضًا ثم تذكر الرؤيا التي رآها طارق وبكى بشدة وقال في نفسه :

-لقد هلك الفتى.

انتظرونا في الجزء الثاني